13 me Année No. 624

Lundi - 18 - 6 - 1945

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
٨٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٢٤ « القاهرة فى يوم الإثنين ٨ رجب سنة ١٣٦٤ — ١٨ يونيو سنة ١٩٤٥ » السنة الثالثة عشرة

خليفة نابليـــون !

لا تقل إن خليفة نابليون بيتان ؛ فإن المرشال جثا ضارعاً أمام النازية وجيشه يفعم الميادين والمدائن ، وذهبه يتخم الصناديق والخزائن ، وعلمه يخفق على مستعمرات مسخرات بأمره ، وحليفته الغنية القوية تسأله جاهدة أن تصل عمرها بعمره !

ولا تقل إنه ديجول ؛ فإن الجنرال لم يشتهر فى أيّة ملحمة ، ولم يُعرف بتدبير خطة محكمة . وجملة أمره أنه تشبث يوم الهزيمة بطائرة فهرب ، ثم لجأ إلى لندن وطلب فأعطته لندن ما طلب !

ولكن قل معى : إن خليفة نابليون ووارث بطولته وعبقريته هو الجنرال أوليفا روجيه دكتاتور فرنسا فى سورية ! !

وجه كوجه البومة عليه صفرة المومياء ، ورأس كرأس النعامة فيه رعونة الكبرياء ، وشخص كتمثال الموت فى يده منجل الفناء ، وصوت كنعيب الغراب يردد فى أجواز الفضاء :

« أخفق نابليون فى استعمار مصر فأنا أستعمر سورية ، وعجز نابليون عن تدمير عكا فأنا أدمر دمشق !! وكان فى يد هذا المغرور بقية من عتاد الحلفاء فيها القاذفات والدبابات والرشاشات والبنادق ؛ وكان من حول هذا المغرور طممة من عبيد السنغال غلاظ الشافر سود الأكباد حمر العيون يعدون كالآلة من غير وعى . وكان إخواننا السوريون قد نظروا فى أمرهم وأمر هؤلاء فلم يجدوا لهم مزية عليهم ؛ فلا هم قدوة فى حسن الخلق ، ولا حجة فى صحيح العلم ، ولا قوة فى نظام العالم ؛ وإنما هم أمة أمرضتها رواسب اللاتينية فاستكانت لعوامل البلى ، حتى إذا ابتليت بهذه الحرب انخرعت فلم تقم ، وانماعت فلم تتماسك . فلو كان بينهم وبينها أسباب من فتح أو عهد لأعادوا النظر فيها بعد انهيارها المخزى ؛ فكيف والسبب الذى انقطع كان أوهن من خيوط الباطل ؟

ولكن مسيخ نابليون يصمم على البقاء وإن أبدعت الحجة ، ويصر على المعاهدة وإن فقدت الثقة ! فهو يجلب المدد ليعزز العدد ، وينصب المدافع ليحصن المواقع ، ويتحدى حمية العرب الذين كان آباؤهم يحملون السيوف ليقودوا الأمم ، أيام كان آباء هؤلاء من (النال) يحملون العصى ليقودوا الغنم ! فلم يكن بد من قبول التحدى ، ووقف الكماة الأباة العزل يتلقون برءوسهم قنابل النار ، وبصدورهم قذائف الرصاص ، دون أن يفروا كما فر فى (سدّان) خلفاء نابليون الثالث وهم مدججون بالسلاح محصنون بالمدافع . فاستشهد منهم على أرض سورية الكريمة العظيمة ثمانمائة وجرح ألفان ! وكاد أربعون مليوناً من العرب يؤججون بأجسادهم هذه النار ليَصلى بها من يشاء الله أن يَصلى ، لولا أن رفع الصوتَ من يملك الرفع والخفض ، فانخلعت قلوب القادة وانخرعت متون الجنود !

ولا والله ما ذهب باطلا ذلك الدم الذى طهر سورية من الدخيل ، وجمع كلمة العرب وقوتها من شرق دجلة إلى غرب النيل !

ابن عبد الملك

هذه هى فرنسا . . .

للأستاذ سيد قطب

كلما سمعت أو قرأت ـ بمناسبة حوادث سوريا الأخيرة ـ أن هذه الحوادث مخالفة لتقاليد فرنسا ، ثار فى نفسى شعور السخرية المريرة من هؤلاء المتحدثين أو الكاتبين ...

تقاليد فرنسا !

ومتى كانت تقاليد فرنسا إلا هذه البربرية المتوحشة ؟ ومتى كان الفرنسيون إلا عشاق المجازر البشرية ، المولعين بالدماء فى كل زمان ومكان ؟ حتى فى ثورتهم الكبرى التى يعيشون باسمها حتى الآن .

تقاليد فرنسا !

تقاليدها فى سورية ، أم فى مراكش ، أم فى تونس ، أم فى الجزائر ، أم فى أية بقعة من بقاع الأرض على مدى الأزمان والأجيال ؟

إننى لأستعرض أمامى تاريخ فرنسا فى الشرق ، فلا أجد إلا صفحات من البربرية المتوحشة ، وإلا بركاً من الدماء حيثما وضعت أقدامها فى مكان ، وإلا وسيلة واحدة من وسائل التدمير والتخريب .

فى أيام نابليون سلطت المدافع من قلعة الجبل على المصريين ، ودخلت الجنود الفرنسية المتبربرة بخيولها الأزهر ، وجرت الدماء فى شوارع القاهرة ، وديست كرامة الدين ، وانتهكت الحرمات العامة ... باسم تقاليد فرنسا !

وفى سنة ١٩٠٥ ضربت دمشق بالقنابل ، وأريقت الدماء فى الشوارع ، واعتدت الجنود الفرنسية المتبربرة على الآمنين . وضج الشرق العربى للمأساة ، بينما كانت الصحافة الفرنسية تمجد أعمال الوحشية فى سورية ... باسم تقاليد فرنسا !

وفى سنة ١٩٢١ وما بعدها وما قبلها أيضاً سالت الدماء فى مراكش العربية لإرغام الناس هناك على الدخول فى المسيحية وترك ديانتهم الإسلامية ، باسم « الظهير البربرى » المعروف جيداً فى كل صقع إسلامى ، والذى يشهد بأن دماء الصليبيين لا تزال تجرى فى عروق الفرنسيين . ومنذ ذلك الحين بل قبله والزعماء المراكشيون منفيون فى المستنقعات الحارة ، وبلغ من الوحشية المتبربرة أن تشغل هؤلاء الزعماء السياسيين فى رصف الأرض وقطع الأحجار فى تلك الجهات الحارة النائية فى أواسط إفريقية حتى يصاب بعضهم بالسل ، وبعضهم بالحمى الصفراء ... وذلك باسم تقاليد فرنسا !

وفى تونس ، وفى الجزائر ، البلدين العربيين اللذين تدعى فرنسا أن ثانيهما « أرض فرنسية » تعمل جاهدة على رد أهله عن دينهم بكل وسائل العنف والقسوة ... باسم تقاليد فرنسا !

هذه هى فرنسا .

هذه هى فى حقيقتها من وراء الأضواء المصطنعة والدعايات البراقة . بل هذه هى حتى من خلال الأضواء المصطنعة والدعايات البراقة . فما هذه الأضواء التى تخدع المخدوعين ، وتطلق ألسنة الدعاة ؟ إنها الدعارة الفاجرة ، والتحلل الذميم ، والبوهيمية المطلقة ... إنها هى بعينها النكسة إلى حياة الحيوانية ، وفوضى البربرية !

* * *

ولكن هنا رءوساً وأقلاماً لا تزال تمجد فرنسا ، ولا تزال تتشدق باسم فرنسا !

أولئك بضعة نفر عاشوا فى فرنسا فترة من العمر ، فسمحت لهم فرنسا الداعرة بإشباع أقصى لذائذهم الحيوانية ، وتروية أظمأ شهواتهم الحسية ... ثم عادوا فإذا فى الشرق بقية من تقاليد وبضعة من حواجز ، فلم يرق لهم ما فى هذا الشرق من « رجعية » ! وظلوا يحنون إلى عهد فرنسا الداعر وإلى لذائذها الممنوعة ، وإلى شهواتها المحرمة !

وقليل منهم وجد فى فرنسا علماً وفناً ـ وإن لم يجد لفرنسا قلباً ـ ففتنه العلم والفن عن أقدس المقدسات القومية والإنسانية . فتنه عن كرامة الوطن ، وعن حرمة الأهل وعن شرف العرض ... فإذا أحدهم يجادلنى فى أمر الشرق العربى وفظائع فرنسا فيه فيقول : « إذا لم يكن بد للانسانية من أن تفقد فرنسا أو أن تفقد هذا الشرق العربى ، فليذهب الشرق العربى إلى الجحيم ! »

هؤلاء نفر منحلون ... وعلامة الانحلال فى فرد أو أمة

أن يهون عليه شرف العرض وحرمة الأهل وكرامة الوطن . كما هانت على هذا الذى كان يجادلنى فى أمر فرنسا .

ويقولون لنا حين نجادلهم : إنكم لم تعيشوا فى فرنسا . أجل نحن لم نعش فى فرنسا ، ولكن فرنسا عاشت عندنا فلم نطلع منها فى يوم من الأيام على صفحة بيضاء ... فهلا أخطأت فرنسا مرة فأطلعتنا على حقيقة عناصرها الطيبة ؟ !

ويعتذرون لفرنسا اليوم فى تصرفاتها البربرية بأنها تحس « مركب النقص » بعد الهزيمة ، فتريد التعويض بمظاهرات القوة ، وأن سياسة وخز الإبر التى تتبعها معها انجلترا فى الشرق هى التى تثير أعصابها تلك الثورة الوحشية .

ولكننا نستعرض تاريخ فرنسا فى الشرق ، فلا نجد اختلافاً بين مركب النقص ومركب الكمال ! ، ولا نلمح فرقاً بين فرنسا الظافرة بعد الحرب العظمى وفرنسا المهزومة فى هذه الحرب .

إنها هى هى ... فرنسا المتوحشة فى كل حال . فرنسا التى تدك القاهرة بالقنابل وتعتدى على حرمة الأزهر وكرامة الدين فى عهد نابليون ، هى فرنسا التى تدك عاصمة الأمويين بالقنابل فى عام ١٩٢٥ ثم فى عام ١٩٤٥ .

فإما أن « مركب النقص » هذا طبيعة فرنسية دائمة ، وإما أننا نختلق لفرنسا المعاذير لأننا منحلون . لا نثور لعرض ، ولا نغضب لأهل ، ولا تعنينا كرامة ، بعد أن تهيئ لنا فرنسا لذائذ الحس ، وشهوات البدن ، أو حتى لذائذ الفكر وشهوات الوجدان !

* * *

يجب أن نذكر أن فرنسا هى التى أطلقت قنابلها على القاهرة وداست بخيلها مسجدنا الأعظم فى عهد نابليون

يجب أن نذكر أن فرنسا هى التى مهدت الطريق للاحتلال الإنجليزى بانسحاب أسطولها من المياه المصرية سنة ١٨٨٢ ، وترك الأسطول الإنجليزى يهاجمنا بعد الخدعة اللئيمة التى خدعها دى لسبس لعرابى بحماية قناة السويس وعدم السماح للأسطول الإنجليزى بمهاجمة مصر من ناحيتها ، ثم التمسك بالعهد ، لأن فرنسا كانت تبصبص بذنبها كالكلب ينتظر فتات المائدة فى « الاتفاق الودى » بعد ذلك بأعوام !

يجب أن نذكر أن فرنسا هى التى أطلقت قنابلها على دمشق عاصمة الأمويين مرتين فى خلال عشرين عاماً ، بلا مبرر ، وبعد تدبير شنيع

يجب أن نذكر أن فرنسا هى التى دبرت مؤامرة وحشية دنيئة لم تتم لقتل أعضاء الوزارة السورية وأعضاء البرلمان السورى ، وكان عدم إتمامها راجعاً إلى وقوع وثيقة فى يد الحكومة السورية

يجب أن نذكر أن فرنسا هى التى أصدرت أمراً يومياً لقواتها فى سورية بالاستعداد « لمذبحة كبرى » ! وأن قائدها هناك هو الذى صرح بحبه لمظاهر القتل والدماء !

يجب أن نذكر أن الجزائر وتونس ومراكش تلق من البربرية الفرنسية ما لا يلقاه أحد من العالمين من القتل والنفى والتشريد ، واستخدام الوسائل الخسيسة فى تعذيب الزعماء السياسيين

يجب أن نذكر هذا كله ، لنحتقر الثقافة الفرنسية مهما تكن ، لأن الثقافة تظل أبداً جوفاء إن لم يكن من آثارها تهذيب الطبع ، وإنارة القلب ، وبث الشعور الآدمى بين المثقفين !

ويجب أن نذكر هذا كله لنحتقر دعاة فرنسا فى كل مكان فى الشرق العربى ، وننظر إليهم كما ننظر إلى الأمساخ المشوهة ، والمخلوقات المريضة ، فما يرتفع تمجيدهم لفرنسا على تمجيد الشهوة . ولو كان تمجيد الثقافة التى لا تخرج بالإنسان عن طبيعة الحيوان!

ويجب أن ننتهز الفرصة السانحة لخنق الثقافة الفرنسية فى الشرق كله ، كما صنعت سورية الباسلة ، فتختنق فرنسا فى الشرق بلا قتال !

يجب أن يكون لنا شرف المساهمة فى أن تعود فرنسا دولة صغيرة — كما تستحق — فقد برهنت على أنها لا تستحق غير هذا يوم جثت على ركبتيها عند الضربة الأولى !

يجب ... وإلا فدعونا من الثورات المؤقتة ، ومن الجعجعة الفارغة ، ومن الألفاظ الجوفاء !

سيد قطب

قضى استئنافياً بجلسة ٢٣ ـ ١٢ ـ ١٩٤٠ فى الاستئناف ١٦٨٠٢ بتغريم اسماعيل حسن الدهان جنيهان لبيعه لحماً بأزيد من التسعيرة .

فى إرشـــاد الأريب
إلى معرفة الأديب
للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

— ٥ —

* فى ج ١٥ ص ١٢٨ : وكتب حسن بن على الجُوَينىّ فى ذى القعدة سنة ست وستين وخمسمائة بالديار المصرية عمّرها الله تعالى بدوام العز : وقال المعرى وضرب علىّ بن هلال مثلاً :

طربتُ لضوء البارق المتعالى ببغداد وهنا ما لهن ومالى
فيابرق ليس الكرخ دارى وإنما رمى بى إليه الدهر منذ ليالى
فهل فيك من ماء المعرة نغبة تغيث بها ظمآن ليس بسالى
ولاح هلال مثل نونٍ أجادها بماء النضار الكاتب ابن هلال

قلت : (طربن لضوء البارق المتعالى) (فهل فيك من ماء المعرة قطرة) (بجارى النضار الكاتب ابن هلال) (كما فى سقط الزند) ويؤيد ذلك قول الشارح فى البيت الأول : « الضمير فى طربن للأبل، والمعنى خفت الإبل شوقاً لما رأت البارق .. يعنى بارقاً نشأ من نحو أوطانها بالشام وهى بالعراق ... » وقوله فى البيت الثانى : « فهل حملت أيها البرق قطرة من ماء بلدتى » وقوله فى البيت الثالث : « شبه هلال رجب بنون خط ابن البواب (الجوينى) بالنضار الجارى أى بماء الذهب »..

* فى ج ٧ ص ١٢٩ كان بندار[1] بن عبد الحميد الكرخى الأصبهانى يحفظ سبعمائة قصيدة ، أول كل قصيدة (بانت سعاد) . قال المؤلف : وبلغنى عن الشيخ الإمام أبى محمد الخشاب أنه قال : أممنت التفتيش والتنقير فلم أقع على أكثر من ستين قصيدة .

(١) ضبط (بندار) فى الكتاب بكسر الباء وأغلاطهم بضمها .

وجاء فى شرح (أممنت) أى أبعدت فى الاستقصاء وبالغت فيه ، وكانت فى الأصل (ممنت) وأصلحت .

قلت : ربما كان الأصل (أنعمت التفتيش) أو (أمعنت فى التفتيش) .

فى النهاية : وفى حديث صلاة الظهر : فأبرد[1] بالظهر وأنعم ، أى أطال الإبراد وأخر الصلاة ، ومنه قولهم : أنعم النظر فى الشيء أى أطال التفكير فيه .

وفى المخصص ج ٣ ص ٢٩ : قالت الأوائل : إن اليقين هو العلم الثانى أى أنه لا يُعلم ولا يُدرك عن بديهة ولكنه بعد بذل الوسع فى التعقب وإنعام النظر والتصفح . وفيه ص ٥٢ والرأى الدَّبَرى الذى لم يُنعم النظر فيه .

وقول الحريرى فى المقامة الثانية الحلوانية : « أممنت النظر فى توسمه » محرف[2] ، والصواب ما جاء فى مقدمة المقامات : « ومن نقد الأشياء بعين المعقول وأنعم النظر فى مبانى الأصول نظم هذه المقامات فى سلك الإفادات » وما جاء فى المقامة السادسة المراغية . وفى الخامسة عشرة الفرضية وفى التاسعة والأربعين الساسانية .

وأمعن فى الأمر : أبعد فيه كما فى الأساس ، وفى النهاية : وأمعنوا فى بلد العدو وفى الطلب أى جدوا وأبعدوا . ومثل ذلك فى كتب اللغة . وفى المقامة الخامسة عشرة الفرضية ، وفيها (أنعم وأمعن) : « قال : لأنى أنعمت النظر فى تقامك ما حضر ، حتى لم تبق ولم تذر . فرأيتك لا تنظر فى مصلحتك ، ولا تُراعى حفظ صحتك . ومن أمعن فيما أمعنت[3] وتبطّن ما تبطنت ، لم يكد يخلص من كظة مدنفة ... » .

(١) الأبراد : انكسار الوهج والحر ، وهو من الأبراد الدخول فى البرد (النهاية) .

(٢) يظهر أن التحريف قديم ، ففى شرح الشريشى عند هذه اللفظة : أممنت بالغت وأدمت النظر وأصله من أمعن فى الأرض إذا أبعد الذهاب فيها .

(٣) فسر الشريشى (أمعن) هنا بقوله : أمعن كثر ، وتقول أمعن لى بحقى : اعترف به وأظهره ، مأخوذ من الماء المعين وهو الجارى الظاهر ، وهذا التفسير بعيد وهو يخالف شرحه (أمعن) فى الحلوانية .

وأمن فعل لازم وأنسم فعل متعد .

* فى ج ١٤ ص ١٩٦ كان أبو الفتح بن العميد قد أغرم قبل القبض عليه بإنشاد هذين البيتين ، لايجف لسانه عن ترديدهما :

ملك الدنيا أناس قبلنا رحلوا عنها وخلوها لنا

ونزلناها كما قد نزلوا ونخليها لقـــوم غيرنا

قلت : فى اليتيمة : (ونخليها لقوم بعدنا) فغيّر الناسخ .

* فى ج ١٠ ص ١٥٤

والدهر إذ مات نماريده قد مد أيديه إلى بُلْـهِهِ

وجاء فى الحاشية : فى الأصل (نماريه) فجعلت نماريده ، واحدها نمرود ، وكان يطلق على ملك بابل ، فلما تجبر وتكبر حين دعاه الخليل إلى التوحيد صار يستعمل فى كل متكبر جبار ، كفرعون اسم لكل من ملك مصر ثم استعمل فى الشخص المتصف بالجبروت :

قلت : نحاريره . فى التاج : « النحرير — بالكسر — الحاذق الماهر العاقل المجرب ، وقيل : الرجل الطبِن[1] المتقن الفطن البصير بكل شيء مأخوذ من قولهم : نحر الأمور علماً . » والجملة الأخيرة فى الأساس فى مجازه . والبيت ختام مقطوعة للحسين بن محمد الدباس المعروف بالبارع ، ومقطوعته :

أفنيت ماء الوجه من طول ما

أسأل من لا ماء فى وجهـهِ

أنهى إليـــه شرح حالى الذى

يا ليتـــنى مت ولم أنهـــه

فلم ينلنى أبداً رفـــده ولم أكد أسلم من جَبْههِ

* فى ج ١٣ ص ٢٢٢ وخضت فى المناظرة والمجادلة سنة جَـرِدَةً رضيت عن نفسى فيه ، ورضى عنى أستاذى .

وجاء فى الشرح : يقال : سنة جردة : خالية من النبات فكأنه يقول : لم أشتغل بغير الجدل والمناظرة .

قلت : قالوا : أرض جردة ، وقالوا : سنة جارود : مقحطة شدة المحل . و (جردة) فى الجملة هى (جرداء) قال الأساس : مضى عليهم عام أجرد وجريد وسنة جرداء أى كاملة منجردة من النقصان . ونقل التاج هذا القول . وفى اللسان : عام أجرد : تام . و (فيه) فى الجملة (فيها) والقائل الإمام البيهقى ، وأستاذه الذى عناه هو تاج القضاة يحى بن عبد الملك . قال : وكان ملكاً فى صورة إنسان !

* فى ج ٧ ص ٢١٧

أقول لـما جاءنى نَعِيُّهُ بعداً وسحقاً لك من هالك

يا شر ميت خرجت نفسه وشر مدفوع إلى مالك

قلت : جاءت (نعيه) بكسر العين وتشديد الياء ؛ وإنما هى (نَعْيُه) بسكون العين وتخفيف الياء ، وإن صح هذان المصدران ، وصح صدر البيت وحده[1] .

والبيتان قالها حُبَيْش بن عبد الرحمن أبو قلابة فى الأصمعى لما بلغته وفاته شامتاً به .

قلت : من أمثال العرب : الشماتة لؤم .

* فى ج ١٢ ص ١٠٥ ... أخبرنى[2] أبو على[3] عن أبى بكر[4] عن أبى العباس[5] قال : سمعت عِمارة بن عقيل بن بلال بن جرير يقرأ : (ولا الليل سابقُ النهارَ) فقلت له : ما أردت ؟ قال أردت (سابقٌ النهارَ) فقلت : فهلا قلته . فقال : لو قلته لكان أوزن أى أقوى وأفصح .

قلت : عمارة هذا بضم العين ، وسابق الأولى المضمومة المنونة هى بضمة واحدة ، وهى قراءة عمارة بن عقيل ، و (سابقَ النهارِ) هما (سابقٌ النهارَ) بضم سابق وتنوينه وفتح الراء فى النهار .

وقد قرئ (قل هو الله أحدُ الله الصمد) بغير تنوين فى أحد ،

(١) فى الأساس : هو طبن : عالم .

(١) الصدر من الرجز ، والبيتان من السريع .
(٢) القائل ابن جنى .
(٣) الفارسى .
(٤) ابن دريد .
(٥) المبرد .

والجيد هو التنوين كما قال (الكشاف) .

* في ١٢ ص ١٥٩ وله (لسليمان بن عيسى البلطي أبيات يحسن في قوافيها الرفع والنصب والخفض (مطلعها) :

إني امرؤ لا يصطبيني (م) الشادن الحسنُ القوامُ (ما) رفع القوام بالحسن لأنه صفة مشبهة باسم الفاعل والتقدير الحسن قوامه كما تقول : مررت بالرجل الحسن وجهه ، ونصبه على الشبه بالمفعول به ، وخفضه بالإضافة .

وجاء في شرح (يصطبيني) : كانت في الأصل يطيب لي ، والبيت بها ينكسر ، يقول : إن الشادن الذي هذه صفته ليس في مكنته أن يحملني على الصبوة إليه ، والفعل مزيد بتاء الافتعال أبدلت طاء .

قلت : لا يَطَّبيني . في الأساس : طباه واطباه : دعاه واستماله . ومثل ذلك في الصحاح واللسان والتاج . وفي أمالي القالي والنهاية : « إن مصعبا (مصعب بن الزبير) أطبى القلوب » وفي المقصورة الدريدية :

لا يطبيني طمع مدنس إذا استمال طمع أو اطبى

وفي طبعة (الجوائب) : يطبئني . فاختل بالهمز الوزن ، واستحال القمز ...

* في ج ١٤ ص ٢٢٧ واستدعى ابن عباد من أصفهان وولي الوزارة ودبرها برأي وثيق ، وجد رتيق .

وجاء في شرح رتيق : من رتق الشيء جعله يلتئم بعضه مع بعض .

قلت : لا رتيق في العربية . واللفظة المحرفة هي (زنيق) والزنيق المحكم الرصين يقال : رأي زنيق وأمر زنيق أي وثيق ، وكذا تدبير زنيق كما في التاج . وفي الأساس : ومن المجاز : ورأي زنيق : محكم ، وتقول : هذا تدبير أنيق ، ورأي زنيق .

٢ ـ حول انهيار فرنسا

لأســتاذ عربي كبير

ولنترك مسائل المدح والإطراء والرثاء جانباً ، ولنعد إلى أصل القضية ونتساءل ما ذا كانت أسباب انهيار فرنسا ، هذا الانهيار السريع الذي يكاد يكون فجائياً ؟ ...

فمن أبسط وأسهل الأجوبة التي تخطر على البال رداً على هذا السؤال هي أن فرنسا لم تكن مستعدة للحرب .

وفي الواقع أن هذا التعليل قد سيطر على الأذهان والأقلام ، سيطرة غريبة . فإن معظم الذين كتبوا وعالجوا هذا الموضوع عللوا الانهيار بعدم الاستعداد والبعض منهم جعلوا من « عدم الاستعداد » هذا دليلاً على حسن الطوية ونبل الغاية .

فقد قرأت بين ما قرأته من المقالات حول هذا الانهيار في المجلات المصرية ، هذا الحكم البتّار :

« ما غلبوا إلا لأن الديمقراطية التي يعتقدونها لا تفكر إلا في السلم ولا تتسلح إلا بالعهود والمواثيق والقوانين والشرف ، وأن الديكتاتورية التي يعادونها لا تفكر إلا في الحرب ولا تتسلح إلا بالحديد والنار والدعاية والخيانة والكذب »

أنا لا أستطيع أن أسلم بصحة هذا الرأي ، بالرغم من احترامي الشخصي لصاحبه ؛ فلنستعرض الأعمال العسكرية والسياسية التي قامت بها فرنسا منذ انتصارها في الحرب العالمية المنصرمة : إنها استولت على مراكش من جهة ، وعلى الشام من جهة أخرى ، وجردت الحملات العسكرية على مختلف النواحي في أوربة وآسية ، وأفريقية : حاربت الأتراك ، حاربت العرب ، حاربت الروس بعد الهدنة ، اشتركت في احتلال قسم من البلاد الألمانية ، وأقدمت بمفردها على الاستيلاء على قسم آخر منها ؛ ساعدت دول بولندا ، وتشيكوسلوفاكيا في تسليحاتها وتنظيماتها العسكرية ، وفتلت أحابيل الحلف الكبير والحلف الصغير ، وأخذت تدير دفة السياسة الأوربية بصوت مسموع ومكانة مرموقة . . وأنفقت مبالغ طائلة في سبيل تشييد « خط ماجينو » على طول الحدود الألمانية ، ورصعت البلاد السورية والمراكشية بعدد كبير من الواقع العسكرية . . . فكيف يجوز والحالة هذه أن نقول إن فرنسا لم تفكر إلا في السلم ، ولم تتسلح إلا بالعهود والمواثيق ؟

العهود والمواثيق ؟ هل احترمتها فرنسا — مثلا — في سياستها السورية ؟ ألم تكن أعمالها هناك — من أولها إلى آخرها — سلسلة حركات تتلخص في القوة والعنف دون أن تتقيد بالمواثيق والمواعيد ؟ ...

فالعامل الأصلي في الانهيار لم يكن عدم الاستعداد للحرب .

وعلى من يخامره أدنى شك في هذا الباب أن يرجع بذاكرته إلى أوائل الحرب الحالية . ويتذكر ما كان يسمعه وما كان يقرأه من الآراء والأخبار حول قوة فرنسا العسكرية : فكلنا كنا نسمع كل يوم مقارنات طويلة عريضة ، بين خط ماجينو وخط سيجفريد ، مقارنات تنتهي بوجه عام بالمدح والإطراء على الأول وبالقدح والازدراء بالثاني . كل يوم كنا نسمع ونقرأ أخباراً شتى كلها تؤكد تفوق المدفعية الفرنسية على المدفعية الألمانية وتبرهن على تفوق الطيران الفرنسي على الطيران الألماني ...

ولا حاجة للبيان أن مصادر هذه الأخبار والدعايات كلها كانت فرنسية ...

وكل شيء يدل على أن فرنسا كانت « تعتقد » أنها مستعدة للحرب أتم الاستعداد ، وأنها ستنتصر بدون ريب . وإلا لما أقدمت على إعلان الحرب ، ولأوعزت إلى بولندا بوجوب التساهل مع ألمانيا في قضية دانزيج والممر ، ولا نكبت بعد ذلك على إتمام استعداداتها ؛ غير أنها لم تفعل ذلك ، بل بالعكس شجعت بولندا على المقاومة ، وانضمت إلى بريطانيا العظمى في توزيع « الضمانات » إلى اليمين واليسار ، وعلى القريب والبعيد ، ممن يطلبها أولا يطلبها من الدول ... فلا مجال للشك في أن فرنسا كانت مغرورة بقوتها ومخدوعة في قوة عدوتها .

من المعلوم أن القوة من الأمور النسبية ؛ فالقوى بالنسبة إلى شيء ، قد يكون ضعيفاً بالنسبة إلى شيء آخر ، والغلط في التقدير في مثل هذه الأحوال قد ينتج من غلط في تقدير القوة نفسها ، أو في غلط في تقدير القوة المقابلة لها ، أو من غلط في كلا الأمرين ... إن سير الوقائع يدل دلالة قطعية على أن فرنسا أخطأت خطأ فاحشاً في تقدير قوة ألمانيا ...

فيجدر بنا أن نتساءل إذاً : لماذا اخطأت فرنسا كل هذا الخطأ الفاحش فى تقدير قوة عدوّها ؟

إننى أعزو سبب ذلك إلى انخداع فرنسا بأقوال اللاجئين الموتورين الذين هربوا من ألمانيا أو طردوا منها ... وقد فتحت فرنسا أبوابها لهؤلاء ، وأرادت أن تستفيد منهم ومن شكاواهم ودعاياتهم فى إثارة الرأى العام العالمى ضد ألمانيا واستمالته نحو فرنسا ... فى حين أن القسم الأعظم من هؤلاء اللاجئين كانوا من الطفيليين الموتورين الذين لا يرتبطون بأى وطن من الأوطان المتيدة ارتباطاً قلبياً ، ولذلك أخذوا يصورون ألمانيا على غير حقيقتها ؛ صوروا النظام الجديد الذى قام فى ألمانيا بصورة مجموعة من التعسف البربرى تقوم بها جماعة من الطغاة فيكرهها جميع الناس . قالوا إن كل الناس ينفرون من النازية نفوراً شديدا ويستعدون للثورة عليها استعداداً كبيراً . كلنا سمعنا انعكاسات هذه الأقوال والدعيات . ألمانيا على أبواب ثورة داخلية ستندلع نيرانها قريباً فتجرف الهتلرية جرفاً عنيفاً ... كل شىء ردىء هناك ، حتى المعادن التى تصنع منها الأسلحة ، حتى الأسمنت الذى يستعمل فى بناء الحصون لم يكن من الأنواع الجيدة ...

لقد فتح الفرنسيون أبواب بلادهم لمئات الألوف من هؤلاء الموتورين على مصراعيها ، كما فتحوا آذانهم لسماع دعاويهم ودعاياتهم ، وصاروا يصدقون كل ما يقولونه ، ولاسيما أن ما يقوله هؤلاء كان موافقاً لما يتمناه الفرنسيون كل التمنى ...

وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن ذلك كان من أهم الأسباب التى أدت إلى انخداع فرنسا فى تقدير قوة عدوّها ، وأدت بها إلى الانكسار القظيع ...

فقد أفاضت الجرائد كثيراً فى ذكر أعمال الذين سموا باسم « الطابور الخامس » وبحثت كثيراً عن الدور الذى لعبته الجمعيات التى كانت تقوم بدعايات متسترة — على حساب ألمانيا — ويهيئون بذلك الجوّ النفسى اللائم لعمل الجيوش الجرارة

غير أننى أقول : إن عمل أرتال اللاجئين فى فرنسا لم يكن أقل تأثيراً من عمل الطوابير الخامسة فى النتيجة النهائية . فإن ارتال اللاجئين الموتورين أضروا فرنسا من حيث كانوا يريدون خدمتها ؛ وخدموا ألمانيا من حيث كانوا يعتقدون إضرارها ... لأن دعاياتهم خدعت الفرنسيين خدعة قوية فى قوة ألمانيا ، وجرّتهم إلى الحرب والاصطدام مع قوى تفوق قواهم تفوقاً عظيماً ... وأدت بذلك إلى انخذالهم ذلك الإنخذال المريع .

* * *

والآن ، بعد أن حدث ما حدث فظهرت الحقائق للعيان ، تبين بصورة لا تترك مجالا للشك أن الجيش الألمانى الذى هاجم الجيش الفرنسى ، كان يفوقه تفوقاً عظيماً من جميع الوجوه المادية والمعنوية . كان يفوقه تفوقاً بارزا من حيث العدد والتجهيزات والانضباط والقيادة ... وبتعبير أقصر ، من حيث الكمية والكيفية ...

من المعلوم أن ألمانيا كانت جُرِّدَت من السلاح ، وحُرِّمت من حق التسلح بعد الحرب العالمية ، فظلت محرومة من الأسلحة ومن مصانعها مدة تزيد على عشر سنوات ، فعند ما بدأت تتسلح مؤخراً — سراً فى بادىء الأمر ، وعلناً فى نهاية الأمر — لم تتقيد بشىء من القديم — بطبيعة الحال . . . فاستحضرت أنواعاً جديدة من الأسلحة الحربية ، وابتكرت أنواعاً جديدة من أساليب الحرب . ويظهر أنها كانت تمكنت من ابتكار أنواع عديدة ، فاستفادت من كل نوع منها فى إحدى صفحات حروبها المتوالية فى بولندة ، وفى النرويج ، وفى هولندا ، وعندما جاء دور هجومها على فرنسا استطاعت مفاجأتها بوسائط وأساليب حربية أخرى ، أفسدت على الجيش الفرنسى جميع الخطط التى كان قد وضعها ...

وزد على ذلك أن الجيش الألمانى الذى انقض على الجيش الفرنسى بمثل هذه الوسائط الحربية الجديدة ، كان متفوقاً عليه تفوقاً كبيراً من حيث العَدَد أيضاً . وإذا بحثنا أسباب هذا التفوق العَدَدى نستطيع أن نذكر أموراً كثيرة منها مساعدة الموقع الجغرافى ، وسير صفحات الحرب ، وكثرة وسائط النقل ، ونظام خطط التعبئة .. وما أشبه ذلك من العوامل والأسباب ، غير أننا — مع كل ذلك — نضطر إلى التسليم بأن السبب الأصلى يعود إلى كثرة العدد ؛ إذ من المعلوم أن عدد نفوس ألمانيا يناهز ضعف عدد نفوس فرنسا ، فلا غرابة ، والحالة هذه أن يتفوق جيشها على جيش فرنسا تفوقاً كبيراً من حيث العدد أيضاً ..

ومما يجدر بالانتباه أن قضية عدد السكان كانت من القضايا التى أخذت تشغل بال الفرنسيين وتثير مخاوفهم منذ مدة غير يسيرة ، فإن

الاحصاءات الموجودة تدل على أن نفوس فرنسا كانت مساوية لنفوس ألمانيا سنة ١٨٦٥ غير أنها لم تزد بعد ذلك خلال سبعين سنة — أي حتى سنة ١٩٣٥ — إلا ثلاثة ملايين ، في حين أن نفوس ألمانيا — زادت — خلال المدة نفسها — أكثر من ثلاثين مليوناً ...

لا شك في أن قضية النفوس وحدها لا تكون من القضايا الحاسمة في سير التاريخ ؛ فإن التاريخ يرينا أمثلة كثيرة من تغلب الأمم الصغيرة على بعض الأمم الكبيرة ، بالرغم من قلة عدد نفوسها ، غير أن مثل هذه الحوادث لا تحدث عادة إلا عندما يكون هناك فرق عظيم بين الأمتين ، من حيث مستوى الحضارة والثقافة ، وشدة الروابط الاجتماعية وقوة الإيمان القوى ... وأما إذا كانت الأمتان متقاربتين من هذه الوجوه الثقافية والاجتماعية — كما هي الحالة في فرنسا وألمانيا الآن — فمن الطبيعي أن تكتسب قضية النفوس خطورة خاصة ، وتؤثر في سير التاريخ تأثيراً كبيراً .

فقد انتبه عدد غير قليل من الكتاب والمفكرين في فرنسا إلى الخطر الذي أخذ يحدق ببلادهم من جراء نقص عددها ؛ حتى إنه ظهر بينهم من قال : يجب أن نعلم بأننا في كل سنة من السنين التي تمر علينا على هذا المنوال نخسر معركة ونفقد جيشاً دون أن نقدم على حرب ودون أن نشعر بهذه الخسارة ، في حين أن ألمانيا — بعكسنا — تربح في كل سنة معركة وتحصل في كل سنة على جيش جديد ، دون أن تقدم على حرب ودون أن تضحى شيئاً في سبيل ذلك ...

إلا أن الأمور ظلت على حالها هذه بل زادت خطورة من جراء التدابير المتخذة في ألمانيا في هذا السبيل — لقد وضعت ألمانيا عدة قوانين واتخذت عدة تدابير لضمان تكاثر النفوس — زيادة على سيره المعتاد — في حين أن فرنسا لم تخرج عن ساحة النقد والبحث في هذا المضمار ، ولم تقدم على وضع قانون يعالج هذه القضية الحيوية بعض العلاج إلا قبل اندلاع نيران الحرب الحالية

كان يأمل رجال السياسة في فرنسا التغلب على المشاكل والمخاطر التي تنجم عن مسألة النفوس بوسيلتين غير مباشرتين .

الأولى — التجنيد من المستعمرات ، وتقوية الجيش الوطني بجيش المستعمرات .

الثانية — تكوين اتفاقات سياسية وعسكرية تربط فرنسا بكتل كبيرة قوية ، تكفي للملافاة نقص النفوس الأصلي ، بل تضمن التفوق على أعدائها من جهة النفوس أيضاً

غير أنه مما لا مجال للشك فيه أن الجيوش التي تجمع من أهالي المستعمرات — وتساق إلى ساحات الحروب سوقاً وتحمل على خوض غمار الحرب — دون أن تشعر بدافع باطني يحبب إليها الاستقتال ، أن مثل هذه الجيوش لا يمكن أن تتكافأ والجيوش الوطنية التي تعمل وتحارب بشعور وطني وإيمان قومي ...

وأما الاتفاقات السياسية — فقلما تستقر على حال ؛ فلا تستطيع أن تضمن المستقبل في جميع الأحوال ، لأن منافع الدول والأمم معضلة أعضالا شديدا ، ومتشابكة تشابكا كبيرا . فإذا رأت دولة ما أن من مصلحتها أن تتفق مع دولة أخرى في بعض الظروف ، فقد ترى من مصلحتها أن تلتزم الحياد ، أو تتفق مع غيرها عند تبدل الظروف . إن نظرة بسيطة إلى تقلب الاتفاقات السياسية وتطور التكتلات الدولية تكفي لاظهار ذلك للعيان ...

هذه إيطاليا ، فقد انضمت إلى فرنسا وانجلترا ، ضد روسية في حرب القرم ، ثم اتفقت مع ألمانيا ضد فرنسا بعد استيلاء الأخيرة على تونس ؛ ومع هذا لقد انضمت إلى أعداء ألمانيا خلال الحرب العالمية ، وفي الأخير عادت واتفقت مع ألمانيا ضد أعدائها في الحرب الحالية ...

وهذه إنجلترة ، فقد حاربت فرنسا في عهد نابليون ، ثم اتفقت معها ضد روسيا في حرب القرم ، ثم اتفقت مع اليابان فشجعتها على محاربة الروس بعكس ما عملته فرنسا عندئذ ، ثم اتفقت مع فرنسا وروسية ضد ألمانيا في الحرب العالمية ، ثم حاربت روسيا بعد انتهاء الحرب المذكورة ، وفي الأخير بذلت الجهود الجبارة بالاتفاق معها قبيل الحرب الحالية . وكذلك الأمر في علاقات إنجلترة مع تركيا فإنها كانت على الدوام يوماً لها ويوماً عليها ...

ونحن نستطيع أن نذكر عشرات الأمثلة لذلك ... مما يدل على أن مثل هذه الاتفاقات لا توجد موازنات مستقرة — بين تطور المنافع وتقلب الاتجاهات ...

ولذلك كله سارت الأمور خلال الحرب الحالية سيراً غريباً — بالرغم من الاتفاقات والضمانات السابقة — وقد أدى هذا السير إلى بقاء الجيش الفرنسي — في آخر الأمر — وحيداً ازاء الجيش الألماني في ساحات الحرب ... فازداد بذلك تأثير التفوق العددي زيادة هائلة ...

(س)

لزوم مـــا لا يلزم

متى نُظم وكيف نُظم ورُتب ؟

للدكتور عبد الوهاب عزام
عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

عنيت بأبي العلاء المعرى ناشئاً ، وكتبت في أخباره وأشعاره تلميذاً. وما زلت مَعنيًّا به حافظاً لأخباره وأشعاره . واللزوميات أعظم آثار الرجل ، وهي سجلّ عقائده وآرائه ، ولها النصيب الأوفر من أحاديث من يتحدثون عن المعرى ، وكتابة من يكتبون في فلسفته .

وكثيراً ما ساءلت الأدباء وسألت نفسي: متى نظمت اللزوميات وكيف رُتبت ؟ أخط الشاعر خُطتها ثم نظمها وِلاءً على ترتيب حروف الهجاء ، فآراؤه فيها متوالية على هذا الترتيب ؛ ما تتضمنه أبيات على روىّ الهمزة مقدّم زماناً على ما يذكر في أبيات على روىّ الباء وهلم جرا ؟ أم نظم الرجل ما نظم ثم رتبه على حروف الهجاء ، فقدّم متأخراً وأخر متقدماً ، مسايرة للترتيب الهجائي ؛ فما يُعرف المتقدم والمتأخر من شعر الرجل إلا ما دلت عليه حوادث مذكورة فيه ، ولا يستطاع تتبع أفكاره ورعاية تطورها على الزمان؟ وكنت أقول إنه لا بد لمؤرخ أبي العلاء من أن يَفصل في هذه القضية ، فيجزم بأن اللزوميات مرتبة على الزمان أو غير مرتبة .

لذلك أعدتُ قراءة اللزوميات مستوعباً ، متقصّياً الأبيات التي تذكر فيها حوادث معروفة أو رجال معروفون ، والتي تذكر فيها سنّ أبي العلاء أو حاله من الشباب والكهولة والشيخوخة . وراجعت ما أثره التاريخ من أخبار الرجل ، وذكر كتبه ، فانتهيت إلى القضايا التي أسجلها فيما يأتي :

— ١ —

متى نظمت اللزوميات

جمهرة شعر أبي العلاء في مجموعتين : الأولى تتضمن شعر الصبا والشباب ، وهي التي سماها سقط الزند . وقد جرى في هذا الشعر مجرى الشعراء الآخرين ، فمدح وهجا وتغزّل ورثى ووصف الخ .

وقد قال أبو العلاء في مقدمة سقط الزند :

« وقد كنت في رُبّان الحداثة ، وجنّ النشاط ، مائلا في صغو القريض ، أعتدّه بعض مآثر الأديب ، ومن أشرف مراتب البليغ . ثم رفضته رفض السّقب غِرسه ، والرأل تريكته ؛ رغبة عن أدب معظمُ جيّده كذب ، ورديئه ينقص ويجدب » .

وقال مستملي أبي العلاء الذي كتب ثبت كتبه كما رواه ياقوت في معجم الأدباء :

« ومن غير هذا الجنس كتاب لطيف فيه شعر قيل في الدهر الأول يعرف بكتاب سقط الزند وهو ثلاثة آلاف بيت » .

وفي سقط الزند قصائد قالها في بغداد ، وأخرى أرسلها إلى بغداد بعد رجوعه إلى المعرة سنة أربعمائة ، وأبيات قيلت بعد سنين كثيرة من اعتكافه في المعرة كالبيتين اللذين مدح بهما القاضي ابن نصر المالكي(١) . فإن هذا القاضي مر بالمعرة في طريقه من بغداد إلى القاهرة ، ولم تطل إقامته بمصر ، فتوفى بها سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ، فقد نظم المعرى هذين البيتين حوالى سنة عشرين وأربعمائة . ومرثية جعفر بن علي بن المهذب التي مطلعها :

أحسن بالواجد من وجده   صبر يُعيد النار في زنده

والمجموعة الثانية هي التي سماها « لزوم ما لا يلزم » .

— ٢ —

هذه المجموعة الثانية من أشعار أبي العلاء قد نظمت بعد رجوعه من بغداد . وقد خط خطتها ، وتكلف لها ما تكلف من لزوم ما لا يلزم ، ومن استيعاب الحروف الهجائية على الحركات الثلاث والسكون . قال في مقدمتها :

« كان من سوالف الأقضية أني أنشأت أبنية أوراق توخّيت فيها صدق الكلمة ، ونزّهتها عن الكذب والميط . ولا أزعمها كالسمط المتّخذ ، وأرجو ألا تحسب من السّميط . فمنها ما هو تمجيد لله الذي شرف عن التمجيد ... الخ » .

وقال في المقدمة كذلك :

(١) والمالكي ابن نصر زارق سفر   بلادنا فحمدنا النأى والسفرا
إذا تفقه أحيا مالكا جدلا   وينشر الملك الضليل إن شعرا

«وقد تكلفت فى هذا الكتاب ثلاث كُلَف :
الأولى : أنه ينتظم حروف المعجم عن آخرها
والثانية : أن يجيء رويّه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك
والثالثة : أنه لُزم مع كل رويّ فيه شيء لا يلزم من باء أو تاء أو غير ذلك من الحروف »

فهذا شعر حُدّد موضوعه واختير له نظامٌ فى القوافى ، وترتيب على الحروف وحركاتها ، وكأنه كتاب من كتب العلوم اتصل تأليفه حتى كمل ، وهى خطة تسلّى بها المعرى فى عزلته ، فينبغى أن يكون تاريخه متصلا ونظمه متواليا

وأنا أدّعى أن ما تضمن هذا الكتاب من الآراء هو فلسفة أبى العلاء فى عزلته بعد سنة أربعمائة ، وأن هذا الكتاب كله ، إلا أن تشذ أبيات قليلة ، نظم بعد هذه السنة .

يدل على هذا أن أبا العلاء قال فى مقدمة السقط : إنه رفض الشعر . وقال فى مقدمة اللزوميات : « وقد كنت قلت فى كلام لى قديم: إنى رفضت الشعر رفض السقب غِرسه ، والرأل تريكته ، والغرضُ ما استُجيز فيه الكذبُ . واستعين على نظامه بالشُبهات . فأما الكائن عظة للسامع ، وإيقاظاً للمتوسن ، وأمراً بالتحرز من الدنيا الخادعة وأهلها الذين جُبلوا على الغش والمكر ، فهو إن شاء الله مما يُلتمس به الثواب »

فهذا النظم الذى توخّى فيه العظة والإيقاظ كان بعد النظم الذى جرى فيه مع الشعراء ، ثم رفضه رفض السقب غِرسه ، والرأى تريكته كما تقدم

ودليل آخر أنه ذكر سنّه فى كثير من أبيات اللزوميات تصريحا وتلويحا ، ولم يذكر ما دون الأربعين ، وهو قد بلغ الأربعين سنة ثلاث وأربعمائة إلا بيتاً واحداً فى هذه القطعة :

إذا هبّت جنوب أو شمال ... فأنت لكلّ مُقتاد جنيب
رويدك إنّ ثلاثون استقلّت ... ولم يُنب الفتى فتى ينيب ؟

والخطاب فى هذا البيت إما أن يكون لغير الشاعر ، وإما أن يكون بعض اللزوميات قد نظم حين جاوز الثلاثين قبل سفره إلى بغداد ، وإما أن تكون هذه القطعة نظمت كذلك بعد رجوعه من بغداد واعتزامه الاعتزال ، وكانت سنّه حينئذ سبعاً وثلاثين سنة ، فقد مضت الثلاثون ولم يبلغ الأربعين ؛ فليس بعيداً أن يذكر مرور الثلاثين . ومهما يكن فجمهرة الكتاب نظمت بعد سنة أربعمائة كما أسلفت .

ودليل آخر على أن أبا العلاء شرع ينظم اللزوميات بعد رجوعه من بغداد بقليل ، أنه يذكر فى اللزوميات - كما فعل فى سقط الزند - رحلته إلى العراق آسفاً على الرحيل وعلى الأوبة . وهذا ، فى غالب الظن ، لا يقال بعد مضى سنين كثيرة على هذه الرحلة :

ومالى طِرق للسير ولا السُّرى ... لأنى ضرير لا تضيء لى الطُرُق
أغربانُ نلك السُحم استقلّت مع الضحى ... سوانحَ أم مرّت حمائمك الوُرق
رحلتُ فلا دنيا ولا دين نلته ... وما أوبتى إلا السفاهة والخرق

* * *

بالهف نفسى على أنى رجعت إلى ... هذى الديار ولم أهلك ببغداذا
إذا رأيت أموراً لا توافقنى ... قلت الإياب إلى الأوطان أدّى ذا

* * *

شُئمتِ يا همّة عادت شآمية ... من بعد ما أوطنت عصراً ببغداذى

* * *

وأزيد على هذه الأدلة أن أبا العلاء ذكر سن الأربعين مرات فى اللزوميات ، وقد بلغها بعد رجوعه بسنين ثلاث

— ٣ —

إن كان المعرى شرع ينظم لزوم ما لا يلزم حين رجع من بغداد أو بعد رجوعه بقليل ، فكم استمر ينظمها ، ومتى انتهى من نظمها وجمعها ورتبها وكتب لها المقدمة التى كتب ؟

يمكن أن نجيب على هذا السؤال بوسيلتين : الأولى تتبع الحادثات التى ذكرها والرجال الذين أورد أسماءهم فى شعره ؛ والثانية استقراء الأبيات التى ذكر فيها سنّه

(ا) **الحوادث والرجال :**

١ — أولا : بنو عامر وطيء

يذكر أبو العلاء فتناً وخطوباً أثارها بنو عامر وطيّء فى الشام وما حولها ، ويسمّى بعض رجالهم فى مواضع كثيرة ، منها:

إذا عامر تبعت صالحا ... وزجّت بنو قرّة الجردَبا

وأردَف حسانُ فى مأتمٍ	متى هبطوا مُخصباً أجدبا
وإن قرعوا جبلا شامخاً	فليس يُعنّف إن يَحدَبا
رأيتَ نظير الدّبا كثرة	فتيرُهمُ كعيونِ الدّبا

ومنها :

ألم تر طيئاً وبنى كلاب	سموا لبلاد غزّة والعريش
ولو قدروا على الطير الغوادى	لما نهضت إلى وكر بريش

ويذكر طيئاً وزعيمها حسان فى قوله :

قد أشرعت سنبسٌ ذوابلها	وأرهفت بحتر معابلها
لفتنة لا تزال باعثة	رامحها فى الوغى ونابلها
حسان فى الملك لا يحسّ لها	تزجى إلى موتها قنابلها

ويقول :

أرى حَلباً حازها صالح	وجال سنان على جلّقا
وحسان فى سلفى طيئ	يصرّف من عزّه أبلقا
فلما رأت خيلهم بالغبار	تغاما على هامهم عُلّقا
رمت جامع الرملة المستضام	فأصبح بالدم قد خُلّقا الخ

وقد رثى للرملة كثيراً وحزن لما ناب أهلها ؟ يقول :

والرملة البيضاء غودر أهلها	بعد الرفاغة يأكلون قفارها

عتروا الفوارس بالصوارم والقنا	والمـُلك فى مصر يعتّر فارها(١)
جعلوا الشفار هواديا لتنوفة	مرهاء تكحل بالدجى أشفارها
تكبو زناد القادحين وعامر	بالشام تقدح مرخها وعفارها

ويقول :

أيا قَيلُ إن النار صال بحرّها	مقيم صلاة والمهند وارس
وبالرملة الشعثاء شيبٌ ولِدة	أصابهم مما جنيت الدهارس
وقد ظهرت أملاك مصر عليهم	فهل مارست من ظلمها ما تمارس؟
وأحسنُ منكم فى الرعية سيرة	طُفيجّ بن جُف حين قام وبارس

وقد ذكر المعرى هذه الحادثات فى سقط الزند كذلك ، إذ

قال فى القصيدة التائية التى بعث بها إلى على التنوخى بعد رجوعه من العراق :

بينى وبينك من قيس وإخوتها	فوارسُ تدرأ نكثار سِكّيتا

ويقول فى القصيدة الطائية التى أرسلها إلى خازن دار العلم ببغداد وهو محتجب بمعرة النعمان :

وما أذهلتنى عن ودادك روعة	وكيف وفى أمثالها يجب الغبط
ولا فتنة طائية عامرية	يحرّق فى نيرانها الجعد والسبط
وقد طرحت حول الفرات جرانها	إلى نيل مصر فالوساع بها تقطو
فوارس طعانون ما زال للقنا	مع الشيب يوماً فى عواضهم وخط
وكل جواد شفّه الركض فيهم	وجٍ يتمنى أن فارسه سقط
ونبّالة من بُحتُر لو تعمدوا	بليل أناسىّ النواظر لم يخطوا

فما هذه الفتن التى ذكرها أبو العلاء ومتى كانت ؟

(يتبع) **عبد الوهاب عزام**

---

(١) الملك فى مصر كان للفاطميين حينئذ وكان الخليفة منهم الظاهر (٤١١ — ٤٢٧) فهو يلوم الفاطميين على أن تركوا هذه القبائل تعيث فى الأرض وهم لاهون بتعتير فارات المسك يتطيبون بها لا بعتر الفوارس والعتر الذبح .

قصة كتاب :

يتيمة الدهر

للوزير السيد أبي الحسين بن أحمد بن الحسن بن علي

للأستاذ برهان الدين الداغستاني

كنت أظن أن اسم « يتيمة الدهر » وقف على كتاب أبي منصور الثعالبي المعروف ، حتى عثرت منذ سنوات في خزانة المرحوم أحمد تيمور باشا — على رسالة صغيرة الحجم بسماة يتيمة الدهر للوزير السيد أبي الحسين بن أحمد بن الحسن بن علي رضي الله عنه .

وهذه الرسالة في ٦١ ورقة مكتوبة بخط نسخي جميل مشكول وكل صفحة في أحد عشر سطراً ، وعلى الرغم من شدة عناية المرحوم تيمور باشا بمخطوطات خزانته ، وحرصه الزائد على ذكر مؤلفيها وبيان عصورهم وطرف من تراجمهم — لم أجد في فهارس الخزانة ما يكشف الغطاء عن شخصية مؤلف هذه الرسالة ، وأخذت أقلب الكتاب لعلي أجد في ثناياه ما ينم عن هوية مؤلفه فلم أجد إلا تلك العبارة المسطرة في رأس الصفحة الأولى منه وهي: « كتاب يتيمة الدهر . بسم الله الرحمن الرحيم . قال الوزير السيد أبو الحسين بن أحمد بن الحسن بن علي رضي الله عنه : الحمد لله العلي الكبير ، القوي القدير ، العليم الخبير ، السميع البصير ... إلى أن يقول : أما بعد ، فإن أحق ما نطق به لسان ، وأعرب عنه بيان ، وانطوى عليه كتاب ، وانتهى إليه خطاب ، ما زاد في قوة البصيرة ، وعاد بصحة السريرة ، وطرق طرائق العدل ، وبين حقائق الفضل ، فصار تذكرة للأخيار ، ومزجرة للأشرار ، وقوة لأولى الألباب والأبصار ، وإماماً للعمال ، وقواماً للأعمال ، يرجع إليه الساسة ، وتبنى عليه السياسة ، وتنظم به الأسباب ، وتتجمع فيه الآداب .

وإن الأدب أدبان : أدب شريعة ، وأدب سياسة ؛ فأدب الشريعة ما قضى الفرض ، وأدب السياسة ما عمر الأرض ، وكلاهما يرجع إلى العدل الذي به سلامة السلطان ، وعمارة البلدان ، وصلاح الرعية ، وكمال المزية ، لأن من ترك الفرض ظلم نفسه ، ومن خرب الأرض ظلم غيره » . في مقدمة طويلة على هذا النسق من سجع قصير غير متكلف استغرق ثماني صفحات من الأصل إلى أن يقول في آخر المقدمة : « وقد جمعنا من إنشائنا في كتابنا هذا ألفاظاً وجيزة ، وأجريناها مجرى الأمثال ، وفصولا قصيرة قد جعلناها عمدة للولاة والعمال ، وعدة للعقلاء وذوي الأعمال ، وقصدنا فيما ألفناه من ذلك وجه الاختصار ليقل لفظه ، ويسهل حفظه ، وجعلناه ألف فصل ومثل في ثمانية أبواب :

الباب الأول : في الاستعانة على حسن السياسة

الباب الثاني : في الاستعانة على فضيلة العلم والعمل

الباب الثالث : فيما يستعان به على الزهد والعبادة

الباب الرابع : فيما يستعان به على أدب اللسان

الباب الخامس : في الاستعانة على أدب النفس

الباب السادس : في الاستعانة على مكارم الأخلاق

الباب السابع : في الاستعانة على حسن السيرة

الباب الثامن : في الاستعانة على حسن البلاغة

واستعنا فيما وضمناه من ذلك بالله الجليل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

* * *

ثم قام أحد الناشرين بطبع هذا الكتاب ، وكتب له أحد كبار رجال القضاء الشرعي مقدمة نفيسة ، وصرح كاتب المقدمة بأنه لم يعثر على ترجمة المؤلف ، ولم يشر إلى أن هذه الرسالة طبعت قبل هذه المرة

والواقع أن هذه الرسالة قد طبعت في القاهرة من نحو خمسين سنة ، وإذا أردنا التحديد قلنا : إنها طبعت سنة ١٣١٧ هـ مسماة بغير اسمها ، منسوبة إلى غير مؤلفها ، فقد طبعت على هامش كتاب « نثر النظم وحل العقد » لأبي منصور الثعالبي ، وسميت « كتاب الفرائد والقلائد » ، ونسبت إلى أبي منصور الثعالبي أيضاً ، وذلك بالمطبعة الأدبية بسوق الخضار القديم بمصر سنة ١٣١٧ هـ ، ثم طبعت هذه الرسالة مرة أخرى بعنوان « كتاب الأمثال المسمى بالفرائد والقلائد ، ويسمى أيضاً بالعقد النفيس ونزهة الجليس » ،

ونسب فى هذه المرة أيضاً إلى أبى منصور الثعالبى . وهذه الطبعة مطبوعة فى مطبعة التقدم التجارية بحارة العتبة رقم ١٠ بشارع محمد على بمصر وليس عليها تاريخ الطبع

وهكذا فقد طبع هذا الكتاب مرتين — ولعله طبع مرات أخرى لا نعرفها — مسمى بغير اسمه الحقيقى — ونسب إلى غير مؤلفه فى كلتا المرتين ؛ حتى عثر على نسخة الخزانة التيمورية ، فعرف أن اسمه الحقيقى هو « يتيمة الدهر » ، وأن المؤلف هو الوزير السيد أبو الحسين بن أحمد بن الحسن بن على رضى الله عنه .

* * *

بقى أن نعرف من هو السيد أبو الحسين صاحب كتاب « يتيمة الدهر » ؟ وفى أى عصر عاش ، وما هى مكانته الأدبية ؟

لقد أطلت البحث عن ترجمة للسيد أبى الحسين ، وبذلت كثيراً من الجهد والوقت ، ولكن حياة هذا السيد الكريم ما زالت غامضة خفية . لم أستطع كشف القناع عنها ، فإنى مع كثرة ما بحثت وراجعت من المراجع لم أجد للسيد أبى الحسين ذكراً إلا ما ورد فى رسائل بديع الزمان الهمذانى فى سياق تلك المناظرة التاريخية التى وقعت بين البديع والخوارزمى فى نيسابور سنة ٣٨٣ هـ ، فقد كرر البديع الهمذانى اسم السيد أبى الحسين أكثر من مرة واحدة فى أثناء حكايته لتفصيلات تلك المناظرة ، وذكر أن السيد أبا الحسين كان أحد شهود المناظرة المحكمين ، وأنه كان يناصر الخوارزمى ، وأن الخوارزمى كان يلجأ إليه ويخصه بالحديث والالتفات فى الجلسة الأولى للمناظرة ، فلما كان المجلس الثانى احتال البديع على السيد أبى الحسين ، واستماله إلى جانبه بقصيدة أنشده إياها فى مدح أهل البيت والتشيع لهم ، واستمع إلى البديع حيث يقول : « ... ثم حضر السيد أبو الحسين وهو ابن الرسالة والأمامة ، وعامر أرض الوحى ، والمحتبى بفناء النبوة ، والضارب فى الأدب بعرقه ، وفى المنطق بحذقه ، وفى الإنصاف بحسن خلقه ، فجثم إلى المجلس قد سيفه ، وجعل يضرب عن هذا الفاضل — أبى بكر الخوارزمى — بسيفين لأمر كان قد موه عليه ، وحديث كان قد شبه لديه ، وفطنت لذلك فقلت : أيها السيد ! أنا إذا سار غيرى فى التشيع برجلين ، طرت بجناحين ، وإذا مت سواى فى موالاة أهل البيت بلمحة دالة توسلت بغرة لائحة ، فإن كنت أبلغت غير الواجب فلا يحملنك على ترك الواجب ، ثم إن لى فى آل الرسول صلى الله عليه وسلم قصائد قد نظمت حاشيتى البر والبحر ، وركبت الأفواه ، ووردت المياه ، وسارت فى البلاد ، ولم تسر بزاد ، وطارت فى الآفاق ، ولم تسر على ساق ، ولكنى لا أتسوق بها لديكم ، ولا أتنفق بها عليكم . وللآخرة قلتها لا للحاضرة ، وللدين ادخرتها لا للدنيا

فقال : أنشدنى بعضها فقلت :

يا لمة ضرب الزما ... ن على معرسها خيامه
لله درك من خزا ... مى روضة عادت ثغامه
لرزية قامت بها ... للدين أشراط القيامه
لمضرج بدم النبو ... ة ضارب بيد الأمامه
متقسم بظبا السيو ... ف مجرع منها حمامه
منع الورود وماؤه ... منه على طرف الثمامه
نصب ابن هند رأسه ... فوق الورى نصب العلامه

إلى آخرها ، وهى قصيدة فى نحو خمسة وعشرين بيتاً كلها على هذا الطراز

قال البديع : « فلما أنشدت ما أنشدت ، وسردت ما سردت ، وكشفت له الحال فيما اعتقدت ، انحلت له العقدة ، وصار سلماً ، يوسعنا حلماً »

* * *

هذا كل ما وجدته عن السيد أبى الحسين ، ومنه يظهر مكانه فى العلم والأدب ، كما يعلم أنه من معاصرى البديع والخوارزمى ومقارعيهما ، وأنه كان موجوداً فى أواخر القرن الرابع الهجرى

بقى أن نعرف : هل هذا السيد الذى قص البديع الهمذانى خبره — هو الوزير السيد أبو الحسين بن أحمد بن الحسن بن على رضى الله عنه صاحب كتاب يتيمة الدهر ؟ .

ذلك ما لا سبيل إلى الجزم به الآن ، ولعل فى قراء « الرسالة » الغراء من يعرف عن كتاب « يتيمة الدهر » ومؤلفه السيد أبى الحسين أكثر مما نعرف . فإلى أولئك أوجه الرجاء أن يتفضلوا بنشر ما لديهم من المعلومات مشكورين .

برهان الدين الداغستانى

البـــلاغة العصرية
واللغة العربية
تأليف الأستاذ سلامة موسى

للأستاذ أحمد محمد الحوفى

موضوع الكتاب — اسم على غير مسمى — الأسلوب التلغرافى — اللغة العربية وحرية المرأة — البلاغة والمنطق — لغتنا حرية ارستقراطية عقيدية — دار العلوم والمنطق — دار العلوم والاصلاح اللغوى — دار العلوم للمسلمين — أبو تمام والثقافة ... .

— ١ —

لم يكد يفرغ الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات من دفاعه المنصف المجيد عن البلاغة حتى أخرج الأستاذ سلامة موسى هذا الكتيب . ولقد يتوسم قارئ اسمه أنه محاولة موفقة لتجديد البلاغة العربية ، أو نقد ونقض لبعض أسسها القائمة ، لكنه إذا ما أتمه دهش من انقطاع الصلة بين العنوان والمعنون ؛ فليس فيه تجديد ولانقض ، اللهم إلاالدعوة إلى أن تجارى لغتنا عصرنا ، وتماشى حياتنا ؛ وهى دعوة قديمة قال بها عبد العزيز الجرجانى وعبد الكريم النهشلى وغيرهما ، وإنما نثر المؤلف فى بحثه سوانح عنت له فى نشأة اللغة ، وعلاقتها بالمجتمع ، وضرر اللغة ، والتفسير الإقتصادى للغة ، والفصحى والعامية الخ ، فمن المغالطة أن يسمى كتيبه بهذا الإسم ، ومن المغالطة أن يعقد فصلا عنوانه (فن البلاغة) ولا شىء فيه من فن البلاغة ، فهل من البلاغة العصرية ألا تدل الكلمات على مسمياتها المعهودة ؟

— ٢ —

كرر فى بحثه الدعوة إلى الأسلوب التلغرافى « وكذلك نحن نتبع الأسلوب التلغرافى ، ونتخير الكلمة التى تحمل المغزى فضلا عن المعنى » ص ١٩

فماذا يريد به ؟ إنه يريد أن يكون الأسلوب خالياً من الروعة والبراعة والجمال والموسيقى ، فلا يمتاز من أسلوب الخطاب المعتاد المتداول فى الشئون اليومية . يريد ألا تتفاوت الموضوعات والمناسبات وأقدار الأدباء والقراء ، يريد (الاشتراكية) فى اللغة كما قرر فى مواضع أخر ، ويتجافى ما تقرره البلاغة وعلم النفس من أن الأسلوب صدى لما فى نفس منشئه ، فالإنفعال القوى لا يعبر عنه إلا أسلوب يلائمه قوة . والانفعال الهادىء لا يوائمه إلا أسلوب يشا كله دقة ، واللغات كلها تعيا أحيانا عن تصوير العواطف بكلماتها الوضعية ، فلا مندوحة للأديب من اللجوء إلى الخيال وأفانين الجمال .

وإذا كان هذا رأيه الذى طالما دعا إليه ، فلماذا لم يأخذ نفسه به ؟ ما له لا يلتزم الأسلوب التلغرافى الذى يدين به ؟ ثم ما له لجأ إلى تكرير المعانى فى هذا الكتيب ؟

على أنا إذا آثرنا الأسلوب التلغرافى فقد جحدنا ما خلفه أدباء العالم كله من تراث فنى . ولخير إذاً للزيات والعقاد والجارم وبرنارد شو وأندريه موروا وأضرابهم أن يحطموا أقلامهم ، أو يغيروا أساليبهم ، وهيهات هيهات !

وليس من الصواب الفصل بين الأسلوب والمعنى ، فهما جزء واحد ، وهما معاً قسيمان فى إثارة القارئ وبمجاوبته للأديب ، أو شعوره بالمتعة الفنيـة ، وهما معاً شريكان فى التعبير عن خلجات الأديب وعواطفه ، والأسلوب التلغرافى لا يحقق كل ذلك .

ولذا عرف بوفون الكتابة الجيدة بأنها « التفكير الجيد والشعور الصادق والإبانة الممتازة مجتمعة معاً » وفى رأى بوفون أيضاً أن « متانة الأسلوب ليست إلا ملاءمته لطبيعة الموضوع ، وهى تتولد تولداً طبيعياً من معنى الموضوع نفسه » ، وهكذا كان بوفون نحا عند ما يكتب فى التاريخ الطبيعى ، ومهلا يستخدم الألفاظ الشائعة فى رسائله إلى أصدقائه المقربين[1] .

والأستاذ سلامة يناقض نفسه إذ يقول فى ص ١٧ « ويمكننا أن ننظر إلى اللغة النظر الفنى فننشد بالكلمات والجمل رفاهية ذهنية لا تؤديها الدقة العلمية » وفى هذا رد على دعوته إلى الأساليب التلغرافية ، إذ الرفاهية الذهنية ليست إلا ثمرة للروعة فى التعبير ، والإبداع فى التصوير ، والفحولة فى التفكير .

(١) بوفون والأسلوب . الرسالة العدد ٦٠٨

— ٣ —

« ثم انظر إلى ما ورثنا من المجتمع العربى القديم بشأن المرأة فقد ألغى هذا المجتمع المرأة من الحياة الاجتماعية إلغاء يكاد يكون تاما ، أما نحن فقد « رددنا الاعتبار » للمرأة المصرية ؛ ولكن مازلنا نستعمل الكلمات القديمة فنقول « أم فلان » أو « حرم فلان » ولا نذكر الإسم ، مع أن الإسم جزء من الشخصية وإهماله هو سبة للمرأة ... وإهمالنا لاسم المرأة هو تراث لغوى قديم يحمل إلينا عقيدة اجتماعية يجب أن نكافحها » ص ٤٩

وليس فى هذا شىء من الحق ، فإن الإسلام قد رفع من شأن المرأة ، واختصها القرآن الكريم فى كثير من المواضع بالخطاب ، ومنحتها الشريعة حقوقها كاملة ، ويحسبنا أن الشريعة الإسلامية لم تحرمها التصرف فى مالها الخاص أو الميراث إذا تزوجت ، ولم تجعل لزوجها سلطانا على مالها ، مع أن القانون الفرنسى ما زال يعتبرها ناقصة الأهلية ، فيتصرف زوجها فى مالها كما يتصرف المولى أو الوصى فى مال القاصر ، وليس لها حق التقاضى إلا بإذن زوجها .

ثم إن الشريعة الإسلامية منحت المرأة حرية اختيار زوجها ، وأجازت أن تكون العصمة بيدها . وقد ضرب الرسول عليه الصلاة والسلام أرق المثل فى إعزازها والحدب عليها ورد الاعتبار لها بأفعاله وأقواله ، وطالما تغنى الشعراء بحبها والزلفى لها ، وطالما أسهمت فى الحركة الأدبية والعلمية والسياسية بنصيبها ، وطالما كُنِّى الرجال بأسماء أمهاتهم وبناتهم ، فليس بصواب أن المجتمع الإسلامى — ودينه الإسلام — انتقص حقوق المرأة وحقر من شأنها كما ادعى الأستاذ .

وهل تناسى الأستاذ أن أوروبا بعد ذلك العصر كانت تسوم المرأة الذلة والهوان ؟ وأن أوروبا كانت تتجادل فى حقيقة المرأة أإنسان هى أم شيطان ؟

ولا تحقير للمرأة فى أن نطلق عليها « أم فلان » ، وإنما فيه تكريم لها ومسرة واعتراف بالفضل ، إذ أنجبت ، وأدت وظيفتها الأولى فى الحياة . ولا تحقير لها فى أن نكنى عنها بحرم فلان ؛ لأنها فى عصمته ورعايته وحمايته ، وهى تعلم أن الزواج شرفها وحليتها وأملها ، وهل المجتمع الغربى المعاصر يحقر المرأة ؟ وإلا فلماذا يطلق عليها مسز فلان وليدى فلان ومدام فلان ؟ ومن لطائف برناردشو فى ذلك أن سيدة قالت له : إن الرجل قد سلب المرأة حقوقها ، فقال لها : بل سلبته هى كل شىء حتى اسمه

— ٤ —

« يجب أن يكون المنطق أساس البلاغة الجديدة ، وأن تكون مخاطبة العقل غاية الشئ بدلا من مخاطبة العواطف » ص ٥٦

وهذه فكرة عاصفة تهدم أساس الشعر والنثر والفنون الجميلة عامة ؛ لأن الفنون وليدة العواطف ، واستجابة لنوازع نفسية لا صلة للمنطق بها ، ولو أنا أخضعنا كثيراً من النصوص الأدبية التى تروقنا للمنطق لوجدناها هباء .

فكلنا نعجب بقول المنخل اليشكرى :

وأحبها وتحبنى ويحب ناقتها بعيرى

ونطرب لقول جميل :

لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل عندهن شهيد

ويروعنا قول المتنبى :

تسود الشمس منا بيض أوجهنا
ولا تسود بيض العذر واللمم
وكان حالهما فى الحكم واحدة لو احتكمنا من الدنيا إلى حكم

ويهزنا قول شوقى :

وجواهر التيجان ما لم تتخذ من معدن الدستور غير صحاح

وأى منطق فى هذا ؟

لو أنا اتخذنا المنطق وحده دعامة للأدب لا نقلب إلى حقائق جافة لا خيال فيها ولا جمال ولا سحر ، ولكان أحرى به أن يسمى علماً لا أدبا ؛ لأن خصيصة الأدب فى لغات العالم كلها أن معانيه خيالية ، وليس معنى هذا أنها بمعزل عن منطق الحياة ، أو فيها خلط واضطراب ، وما زال العالم يكبر ما خلفه هوميروس اليونان من تراث ، وأى منطق فى أبطالهم وأعمالهم الخوارق وهم آلهة وأنصاف آلهة ؟

— ٥ —

« لغتنا لا تماشى المعارف المصرية ؛ لأنها قضت شبابها

تلابس مجتمعاً أرستقراطياً حربياً عقيدياً » ص ٧٧ ، « يجب أن تكون لغتنا متمدنة تتسع للتعبير عن نحو مئة وعشرين علماً وفناً لم يكن يعرفها العرب الذين ورثنا عنهم لغتنا » ص ٢٠

أما أن لغتنا متخلفة عن ركب الحياة المصرية فهذا حق ، ولكن الوزر علينا ؛ لأن اللغة لا تنمى نفسها ، وإنما ينميها المتكلمون بها ، وقد ركدت حياتنا أحقاباً طوالا انزوينا فيها عن العالم المتجدد ، فلما أفقنا وجدنا فى لغتنا قصوراً عن مجاراة الحياة المتجددة ، فعلينا أن ننميها بالاشتقاق أو التعريب

وأما اتهام اللغة بأنها وليدة مجتمع أرستقراطى حربى دينى فلم تعد صالحة لحياتنا — فجرأة ودعوى باطلة ، فلم تكن الأمة الإسلامية فى العصر العباسى الذى يقصده المؤلف أرستقراطية حربية دينية فحسب ، وإلا فبأية لغة ترجم المسلمون تراث اليونان والفرس والهنود والنبط ؟ أتتسع اللغة العربية للتعبير عن فلسفة أفلاطون وأرسطو والتعليق عليها وشرحها ثم تتهم بأنها لغة مجتمع أرستقراطى حربى دينى فحسب فليست صالحة لنا ؟ وبأية لغة ألف المسلمون فى الفلسفة والجغرافيا والفلك والرياضة والمنطق والأخلاق والكيمياء والبلاغة الخ ... الخ

وبحسبى أن المؤلف قد ناقض نفسه بقوله : « إن اللغة خدمت المجتمع العباسى أجل خدمة ، وقامت بشئون حياته » ص ٧٥

ومن عجب أن يطالب بإلغاء كلمات الحرب من لغتنا ؛ لأن مجتمعنا سلمى ص ٧٧ فأى سلام هذا الذى يحلم به ؟ وأين اللغة التى تخلو من كلمات الحرب حتى نجرد لغتنا منها ؟ أو ليس من الحق أن تتهم اللغة بعد قرن إذا ما جردناها من كلمات الحرب بأنها كانت لغة قوم أذلاء مستضعفين ؟

— ٦ —

« وإذا كان اللورد هوردر الطبيب الإنجليزى ينصح لكليات الطب فى بريطانيا بتدريس كتاب جيفونز فى المنطق فى السنة الأولى من الدراسة الطبية فإننا أحوج إلى مثل هذه النصيحة فى دراسة اللغة العربية فى كلية الآداب أو فى دار العلوم » ص ١٠٦

والعجب من مؤلف ينصب قلمه للاصلاح المزعوم أو الموهوم ثم يتجنى أو يغفل ، كأنه لا يعلم أن المنطق القديم والحديث يدرس بدار العلوم دراسة تفوق الحد الذى يتطلبه الأستاذ .

— ٧ —

« أبناء دار العلوم هم الذين تخصصوا فى اللغة ، وتخصصهم حرمهم من دراسات بشرية عدة ، فضاقت آفاقهم وتحجرت لغتهم ... وهم يخشون التغيير لأسباب اقتصادية وطبقية » ص ١٤

أما أنهم هم الذين تخصصوا فى اللغة وأدبها فهذا حق ، وأما أن تخصصهم حرمهم من دراسات بشرية عدة فهذا باطل ، ذلك أنهم يدرسون مع اللغة التى تخصصوا وحدهم فى دراستها كما يقول الأستاذ ثقافات أخرى منها علم النفس والتربية والتاريخ والشريعة والمنطق والأدب ، والأدب المقارن والعبرية والسريانية والإنجليزية والاقتصاد والاجتماع ... الخ الخ ... وقد درسوا فى تجهيزية دار العلوم برنامج المدارس الثانوية وزادوا عليه التفسير والحديث والفقه . ولو اطلع الأستاذ على مناهجهم واستيعابهم لها وشغفهم بالبحث والدرس لغير رأيه ، أو لوجد من الخير له ألا يهاجم به إن كان له فى الإصرار على الانتقاص الظالم أرب .

وأما أن المتخرجين فى دار العلوم يخشون التغيير والتجديد لأسباب اقتصادية وطبقية فهذا افتراء وضغن ، فليسوا يعادون التجديد حرصاً على وظائفهم أن تزايلهم كما يزعم ؛ لأنهم دائماً فى طليعة المجددين ، لكن على أن التجديد إصلاح وبناء ودعم ، لا اعتساف وثورة وهدم ، ثم هم قد درسوا الرياضة والتاريخ والجغرافيا فى مدارس المعلمين والمدارس الحرة فبرعوا ، واستحقوا تقدير الرؤساء ، ونالوا إعجاب الطلاب ، ولم يخطر لأيهم أن يقاوم تجديداً فى اللغة لأنه يؤثر صالحه كما يتهجم عليهم الأستاذ ، وإلا فما بالهم يجددون فى منهج دار العلوم ويستقدمون أساتذة ليسوا من أبنائها ؟ وما بالهم دعوا إلى إنشاء المجمع اللغوى منذ ثلاثين عاما ؟

— ٨ —

ولم ينفد بعد تجنيه على دار العلوم ، فيقول « ودار العلوم للمسلمين ، وهذه نظرة تربط بين اللغة والدين ... فاللغة عند زكى مبارك وابن عرب والحكومة المصرية ليست لغة الديمقراطية والأتوميبيل والتلفزيون بل هى لغة القرآن وتقاليد العرب » يخيل لى أن هذا مفتاح ضغنه على دار العلوم ، فلماذا يختص بها المسلمون ؟ أليس فى هذا حرص على اللغة العربية لأنها لغة الدين ؟

نعم دار العلوم للمسلمين ، لأن المسلمين ما زالوا يرون حفظ



٧ — الفن

للكاتب الفرنسي بول جيزيل

بقلم الدكتور محمد بهجت

الفصل الخامس — الرسم واللون

كان رودان يرسم كثيراً مستعيناً بقلم الحبر أحياناً وبقلم الرصاص أحياناً أخرى . وكان فى أول الأمر يرسم الخط الخارجي بالحبر ثم يضع الظلال بريشة . وتظهر مثل تلك الرسوم المائية كأنها أخذت عن نماذج بارزة أو منحوتة . وما كانت تلك الرسوم فى جملتها إلا رؤى التمثال وأخيلته . أما فى العهد الأخير فكان يستعمل القلم الرصاص ليرسم الجسم العريان ثم يضع ألوان اللحم بالريشة . وهذه الأخيرة أبسط من الرسوم السابقة ، والأوضاع فيها أقل تحديداً ، ولكنها أكثر حركة وأوفى نشاطاً . فترى فى بعض الحالات الجرة أو الخط قوياً عنيفاً كأن به جنة ، ترى جسماً بأكمله وقد نظمته جرة واحدة من القلم الرصاص — وتم تلك الرسوم عن ذلك الجزع المقدس الذى يعترى الفنان حينما يخشى أن يفوته أو يفلت منه تعبير طارئ . أما ألوان اللحم فتوضع بسرعة وقوة وتتم فى ثلاث أو أربع لمسات ، وأما التمثيل فينشأ عن جفاف بقع الألوان حيث تتخلف عند كل لمسة نقط عديدة لا يتسنى للريشة العجلى جمعها والتقاطها . وهذه الرسوم الأولية تمسك وتثبت الإشارات والإيماءات الخاطفة ، وتسجل الحركة المتتابعة التى قلما تلمحها العين لأكثر من نصف ثانية . وهى لا تطلعك على الخطوط والألوان فحسب ، بل تريك الحركة وتشمرك الحياة أيضاً . إنها أخيلة المصور أكثر منها أخيلة المثال .

وأخيراً توقف رودان عن إجراء التمثيل بالريشة وذلك لمداومته على استعمال القلم الرصاص ، فهو يقتصر على مسح الخط الخارجي بأصبعه فينشأ عن ذلك لون فضى يغشى الأجسام كأنه الغلالة الرقيقة ، ويضفى عليها جمالاً رائعاً يجعلها تبدو كأنها غمست فى الشعر والخيال .

وتلك الدراسات الحديثة أجمل دراساته على ما أعتقد . فهى مضيئة ، تزخر بالحياة وتفيض بالسحر .

وعند ما كنت أنظر مع رودان فى بعض تلك التصاوير قلت له : « كم تختلف هذه عن تلك التصاوير الكاملة المنمقة التى تصادف هوى الجمهور ؟ » فقال :

القرآن الكريم والحديث الشريف غذاء اللغة ومعينا للأدب ، وما زالوا يحرصون على سلامة اللغة وبقائها ليبقى الدين ويبقى القرآن الكريم . وأى ضير فى أن يكون للغة علاقة بالدين ؟ أيريد الأستاذ أن يتهاون أبناء دار العلوم باللغة فلا إعراب ولا فصاحة ولا تحرز من أن تفشو الكلمات الأعجمية وإن استطعنا وضع معانيها من لغتنا العربية كما صرح بذلك فى كتابه حتى يصبح القرآن غريباً فى هذه اللغة وهو منها الروح الملهم والمدد الذى لا يغيض ؟ أم يريد ألا يدرس أبناء دار العلوم دينهم ولا يعلموا فيما بعد تلاميذهم ؟

— ٩ —

« وقد كان نابليون يصف الأدباء بأنهم تجار الكلمات ، ولأبى تمام شطرة من بيت كثيراً ما تذكر هى :

« السيف أصدق أنباء من الكتب »

والواقع أن أبا تمام لم يقل كلمة هى أبعد عن الصحة والحقيقة من هذه الشطرة لأن السيوف لا تتحرك إلا للكلام الذى سبقها ... » ص ٨٨

فهم أن أبا تمام يفضل الحرب والقسوة على الثقافة ، كنابليون ولكن الحقيقة أن الشاعر يريد كتب المنجمين الذين أرادوا أن يعوقوا المعتصم عن فتح عمورية ، والتنجيم خرافة ، فلا تثريب على الشاعر ولا وجه للومه ، والشاعر يقول فى القصيدة نفسها :

والعلم فى شهب الأرماح لامعة
وفى الجديدين لا فى السبعة الشهب

مشيراً إلى خرافة المنجمين .

(يتبع)

أحمد محمد الحوفى

المدرس بالسعيدية الثانوية

« حقاً إنها التفاصيل والدقائق الميتة الخالية من التعبير ، والحركة الزائفة المتكلفة هي التي تستهوي الجهال وتطربهم . فالعامة لا تستطيع أن تدرك كنه تعبير قوى لا يحفل بالدقائق والتفاصيل التي لا فائدة منها ويعنى بحقيقة المجموع كله . نعم لا تستطيع السوقة أن تدرك شيئاً من تلك اللاحظات الصادقة التي تنأى بنفسها عن الأوضاع المسرحية المفتعلة والتي تعنى بأحوال الحياة الحقيقية البسيطة ذات الأثر البالغ في النفس

إن من الصعب تصحيح الأغلاط الشائعة عن موضوع الرسم . فمن الخطأ البين أن يظن امرؤ أن الرسم جميل في حد ذاته . إنه ليس جميلا إلا بما يعبر به عن الحقائق الصادقة وعن المشاعر العميقة . يعجَبُ الجمهور بفنانين علكون ناصية فهم بلا مراء ولكنهم يزوقون وينمقون خطوطاً إنشائية خالية من الدلالة ، ويثبتون مرسوميهم في أوضاع متكلفة غير طبيعية ، ولكنها تعد فنية لأنها تشبه أوضاع المُثُل الإيطالية الذين يعرضون أنفسهم على أبواب المراسم . وهذا ما يسمى غالباً بالرسم الجميل ، وما هو في الحقيقة إلا « خفة يد » تعجب البلهاء الحمقى .

وفي الواقع يوجد رسم في الفن كما يوجد أسلوب في الأدب ، أي أن الرسم في الفن هو بمثابة الأسلوب في الأدب . فالأسلوب المزوق الذي يترك أثراً في النفس أسلوب رديء . وأما الأسلوب الجيد الرصين فهو الذي يستخفي ويتوارى كيما يوجه القارئ كل اهتمامه إلى الموضوع الذي هو بصدده وإلى العاطفة المصورة .

فالفنان الذي يزوق رسومه والكاتب الذي يصبو لامتداح أسلوبه كلاهما كالجندي الذي يزين كسوته بالريش ولكنه يتهيب الذهاب إلى المعركة ، أو كالفلاح الذي يشحذ ويجلو سكة المحراث بدلاً من أن يقوم ويفلح بها الأرض .

قد لا يخطر ببالك أن تمتدح الرسم أو الأسلوب ذا الجمال الصادق لأنك تؤخذ بأهمية كل ما يعبران عنه ، ومثل هذا يقال عن اللون أيضاً . وفي الواقع لا يوجد أسلوب جميل أو رسم جميل أو لون جميل ، وإنما يوجد جمال واحد فقط هو جمال الحقيقة السافرة التجلية . فعند ما يتمخض عمل عظيم - أدبياً كان أو فنياً - عن حقيقة جلية ، أو عن فكرة عميقة ، أو عن شعور قوى فياض فمن البدهي أن يكون الأسلوب أو الرسم أو اللون بالغاً منتهى الإجادة والسمو ولا تكون تلك الصفات إلا نور الحقيقة منبعثاً من مصباحها .

يعجب الناس رسوم رفائيل بحق ، ولكن يجمل بهم ألا يعجبوا بها لذاتها أو لاتزان خطوطها اتزاناً بارعاً ، وإنما يعجبون بما تنطوي عليه من المعاني . وأما محاسن هذه الرسوم وكل ما يدعو إلى الإعجاب بها فتنحصر في وداعة الروح ووداعة حلوة رأتها عينا رفائيل وسفرت معبرة عن نفسها على يديه ، وفي الحب الذي يغمر نواحي نفسه والذي يفيض من قلبه على الطبيعة بأسرها .

ولقد حاول الكثيرون ممن تنقصهم روحه أن يستعيروا موسيقية الخطوط والحالات التي صور عليها أشخاصه فلم ينتجوا إلا مقلدات غثة لأعمال نابغة أوربينو العظيم[1] .

وفي رسوم ميشيل أنجلو لا يعجبن المرء بالطريقة التي انتهجها أو بالنتوءات القوية أو بالتشريح البارع ، ولكن بقوة هذا الفنان الزاخرة . أما مقلدوه الذين تعوزهم روحه والذين نسخوا في لوحاتهم أوضاعه القوية الوطيدة ، وعضلاته المنتفخة ، فقد باءوا بالفشل ووضعوا أنفسهم موضعاً كله شين وسخرية .

وإن ما يصح أن نعجب به من ألوان تيتيان Titian هو ما تقدمه لنا من المعاني لا بانسجامها القليل أو الكثير . فليس لألوانه جمال حقيقي إلا بما تتضمنه من سَيِّدُودَة جليلة شاملة . ويظهر الجمال الحقيقي لألوان فيرونيز في قدرتها على إبراز حفلات النبلاء الرشيقة الأنيقة بألوان فضية موسيقية ساحرة .

وأما ألوان روبنز (Rubens) فلا قيمة لها في حد ذاتها ويكاد يكون جمالها المتوهج هراء لولا انطباعها بطابع الحياة والبهجة والسرور والشعور القوى العميق .

ولا أظن أنه يوجد عمل فني واحد يرجع جماله إلى اتزان خطوطه أو تهويل ألوانه فقط أو إلى أنه يسترعي العين وحدها . خذ مثلا النوافذ ذات الزجاج الملون التي يرجع عهدها إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر فهي إذا ما سحرتنا بألوانها الزرقاء المخملية ، أو بحنان ألوانها البنفسجية ، أو بحرارة ألوانها الحمراء ، فما ذلك إلا لأن تلك الألوان تفصح عن سرور خفي أمل صانعوه البررة الأتقياء أن يحظوا به في سماء أحلامهم . وإذا ما جاءت بعض

(١) رفائيل سانزيو ، وأوربينو بلدته .

قطع القاشانى الفارسى المزينة بأزهار فيروزية اللون آية من آيات الألوان الساحرة المحببة فما ذلك إلا لأن ألوانها البديعة تحمل النفس إلى ما لا أدرى من أودية الأحلام والخيال . وعلى ذلك فكل رسم وكل ألوان منسجمة تؤدى معنى بحيث لا يصبح لها جمال بدونه ... وهنا قاطعته قائلا :

« ولكن ألا تخشى الحط من قيمة الصنعة فى الفن ؟ »

ومن يقول لك باحتقارها أو بالإقلال من شأنها ؟ ليست الصنعة إلا وسيلة . ولن يبلغ الفنان الذى يهملها غايته التى هى التعبير عن الشعور والأفكار . ويكون مثل هذا الفنان مثل السائس الذى نسى أن يعلف جواده الشعير .

ومما لا مشاحة فيه أنه إذا كان الرسم ضعيفاً ركيكا واللون مزيفاً مسيخاً ، فلا يمكن والحالة هذه أن تجد أقوى العواطف سبيلا إلى الظهور والأفصاح . قد يبعث التشريح الخاطئ على الضحك على حين يرغب الفنان أن يكون جدّ مؤثر . ويرتكب اليوم كثير من أحداث الفنانين هذا العيب الشائن ، ويخونهم ضعفهم وقصورهم فى كل مناسبة لأنهم لم يدرسوا الدرس الكافى . قد تكون مقاصدهم سليمة ، ونياتهم حسنة ، ولكن ذراعا قصيرة قصراً ظاهراً ، أو ساقاً غير مستقيمة ، أو منظورا مختلا مشوهاً — كل ذلك من شأنه أن يجعل الرائى يصد عن رؤيتها ويشيح بوجهه عنها .

وقصارى القول لا يمكن أن يغنى الهام مفاجىء عن العمل الطويل الذى لا غنية عنه لإكساب العين القدرة على الإلمام التام بالشكل والنسبة ، ولجعل اليد تنصاع لأوامر الشعور وتجرى مجراه

وعند ما أقول بأن الصنعة يجب أن تتنامى فلا أعنى أو يدور بخلدى قط أن الفنان يستطيع أن يزاول عمله من غير إلمام بالعلم ، وأرى على النقيض من ذلك أن لا غنى له عن طريقة شاملة يخفى تحتها ما يبطن ويعلم . ولا غرو فإن أبرع رجال العالم فى نظر السوقى الجاهل هم بعض المشعوذين الذين يرسمون بضعة خطوط شاذة ، أو يأتون بألوان شبيهة بالألعاب النارية المدهشة ، أوهم الذين يكتبون جملا طويلة منمقة حشوها الغريب من الألفاظ . ولكن الصعوبة كل الصعوبة ، وأساس الفن الصحيح هو أن ترسم أو تصور أو تكتب بسهولة وبساطة .

إنك لتشاهد صورة أو تقرأ صحيفة فلا يستوقفك الرسم أو اللون أو الأسلوب ، ولكنك تشعر بالتأثير العميق فى نفسك من غير أن تخشى الوقوع فى غلطة ، فالرسم واللون والأسلوب كلها كاملة من الناحية الفنية ... فقلت له :

ألا يمكن مع هذا يا أستاذ أن تكون بعض الأعمال العظيمة الخالدة ناقصة من ناحية الصناعة الفنية ؟ ألم يقولوا مثلا إن ألوان رفائيل تغلب عليها الرداءة غالبا ، وإن رسم رمبراند لم يسلم من الغمز واللمز ؟ فقال :

صدقنى إن هذا خطأ صراح . فإذا كانت قطع رفائيل تسر النفس فما ذلك إلا لأن كل شىء فيها — من لون ورسم — يعد هذا السرور بمعين . انظر إلى سان چورج الصغير باللوفر ، وإلى پارناسس بالفاتيكان ، وإلى رسوم الستائر فى سوث كنسنجتن (South Kensington) ، انظر إلى كل هذه تر الإنسجام فيها ساحراً أخاذا . نعم ، تختلف ألوان سانزيو عن ألوان رمبراند ولكنها تلائم الهامه كل الملاءمة ، إنها صافية نقية كصنعة القرط. إنها تبدى انسجامات مفرحة ، طلية زاهرة . إن لها شباب روفائيل الخالد . إنها لا تبدو حقيقية ، وذلك لأن الحقيقة التى كان يراها نابغة أوربينو ليست حقيقة مادية فحسب ، بل كانت دنياه دنيا شعور حيث تستحيل الأجسام والألوان بنور الحب . ولا غرو إذا قال أحد غلاة الواقعيين بأن ألوانه غير صحيحة ، أما الشاعر فيراها صادقة .

ولو قورنت ألوان رامبراند أو روبنز برسم رفائيل لبدت الأولى جافية بشعة ، ما فى ذلك من شك .

ومع أن رسم رامبراند يختلف عن رسم رفائيل فهو لا يقل عنه جودة . فخطوط رفائيل حلوة نقية ، أما خطوط رامبراند فخشنة متعرجة . كانت مخيلة الفلمندى العظيم متأثرة بالثياب الخشنة ، والوجوه الفظة الجعدة ، وبأيدى الطبقة الفقيرة المسجلة الدرنة . وما كان الجمال عنده إلا التباين بين حقارة الغلاف المادى الخارجى والإشعاع الروحى الداخلى . وإلا فكيف كان يتسنى له أن يعبر عن هذا الجمال المؤلف من بشاعة مادية ظاهرة ومن سمو نفسانى رائع إذا ما حاول أن يجارى رفائيل فى أناقته ؟ ينبغى أن تدرك أن رسمه كامل متقن إلى أبعد حدود الكمال والإتقان لأنه يتفق تمام الإتفاق مع خلجات نفسه وأفكاره فقلت :

وعلى ذلك قد نفهم من قولك إنه من الخطأ الاعتقاد بأن الفنان لا يستطيع أن يكون بارعا فى فن الألوان ورساما عظيما فى آن واحد

فقال : ما فى ذلك من شك. وأنا لا أدرى والله كيف رسخت هذه الفكرة فى الأذهان إلى هذا الحد . فإذا كان عظماء الفنانين فصحاء بلغاء ، وإذا كان فى مقدورهم أن يملكوا أعنة نفوسنا ويذهبوا بنا كل مذهب ، فما ذلك إلا لأنهم يملكون كل وسائل التعبير التى تلزمهم . لقد برهنت لك على ذلك من لحظة بحالتى رفائيل ورامبراند . ويمكن تطبيق مثل هذه الأدلة على جميع عظماء الفنانين.فمثلا اتهم البعض دلاكروا بجهله أصول الرسم ؛ أما الحقيقة فعلى النقيض من ذلك تماما ؛ فإن رسمه يتمشى تمشياً معجباً مع ألوانه . فهو مثلها وعر متقطع ، محموم ، سام ، مترع بالحيوية والعواطف القوية . وهو مثلها يجنح إلى الغلو والجنون أحيانا وعند ذاك يبدو أجمل وأروع ما يكون ... إن الرسم واللون شيء واحد ولا يمكن أن يعجب بالواحد دون الآخر .

ولقد يغرر أنصاف النقاد بأنفسهم حينما يفرضون وجود ضرب واحد من الرسم فقط هو رسم رفائيل أو حتى رسم من هم دونه من مقلديه أمثال داڤيد وأنجر . وحقيقة الواقع أنه يوجد من ضروب الرسم والألوان بقدر ما يوجد من الفنانين .

يقال عن ألوان البرخت دورر (Albrecht Durer) إنها صلبة جافة ، وليست كذلك بتاتا . إن دورر جرمانى ، فهو يعمم ولا يخصص ، وترى تراكيبه الإنشائية محكمة مدعمة كالحقائق المنطقية ، وأشخاصه جامدة كما ينبغى أن تكون . وهذا يفسر لنا دقة رسمه البالغة ، وكيف جاءت ألوانه مكبوتة محدودة .

« وينتمى هولبين (Holbein) إلى نفس المدرسة ، فليس لرسمه شيء من الرشاقة الفلورنتينية ، ولا للونه الجمال البندقى[1] .

ولكن لخطوطه وألوانه قوة ورسوخ ومغنى باطنى ، وهذه صفات قد لا تتوفر لأى مصور آخر .

ويمكن أن يقال إجمالا عن فنانين حريصين مدققين كمن ذكرت : إن رسمهم غير مرن وإن ألوانهم باردة جافة جفاف الحقائق الرياضية ؛ كما يمكن أن يقال على النقيض من ذلك عن البعض الآخر الذين هم شعراء الوجدان أمثال رفائيل وكوريجيو (Corregio) وأندريا دل سارتو (Amdrea dil Sarto) إن خطوطهم أكثر طراوة وليونة ، وألوانهم أوفق رقة وجاذبية . أما فى غير هؤلاء ممن نسميهم «الواقعيين» أى أولئك الذين هم أقل عمقاً فى الشعور والحس أمثال روبنز وڤلاسكوز ورمبراند فنرى أن لخطوطهم جمالا حيا له قوة وروعة ، وهدوء وسكون . أما ألوانهم فتقوى أحياناً حتى لكأنها أخذت من أشعة الشمس ، أو تخبو أحياناً أخرى فتبدو كأنها الحيدب أو الستر الشفيف .

وعلى ذلك قد تختلف طرائق التعبير عند نوابغ الفنانين باختلاف نفوسهم . ويكاد يكون مستحيلا على المرء أن يقرر بأن رسم ولون فريق منهم أحسن أو أفضل من رسم ولون الفريق الآخر » . فقلت :

— « إنى أدرك ذلك يا أستاذ ؛ ولكنى أراك لا تفكر لحظة فيما تسببه من الإحراج لجماعة النقاد الماكثين عند ما ترفض مبدأ تقسيم الفنانين إلى رسامين وملونين . ولكن يسرنى أن أفهم من قولك إن هناك طريقة جديدة لمن يرغب ذلك من مريدى التقسيم ، فأنت تقول إن الرسم واللون ليسا سوى وسيلة ، وإن روح الفنان هى العامل المهم الذى يعنينا . وعلى هذا يمكن أن نضع المصورين فى جماعات تختلف باختلاف أمزجتهم . فالبرخت دورر مثلا يقرن بهولبين ، لأن كليهما منطقى . ويوضع رفائيل وكوريجيو وأندريا دل سارتو الذين ذكرتهم فى قسم تغلب عليه العاطفة والحس ، ويأتى هؤلاء فى طليعة المحزونين الذين يشبهون بشعراء المراثى . وثم قسم آخر يشمل أولئك الفنانين الذين يعنون بالوجود وبالحياة اليومية يكون من أقطابه الثالوث المؤلف من روبنز وڤيلاسكوز ورمبراند . وأخيرا يؤلف بعض الفنانين أمثال كلود لورين وتيرنر قسما رابعاً ينظر إلى الطبيعة كأنها رؤى وضاءة آبقة » .

فابتسم رودان وقال :

« أرى أن لا داعى لمثل هذا التقسيم الذى قد يكون أقرب إلى الصواب والعدل من ذلك الذى يقسم الفنانين إلى رسامين وملونين . وعلى كل حال فإن أى تقسيم من هذا النوع مصيره إلى الفشل ، وذلك لتعقد الفن أو بالأحرى لاختلاف النفوس الإنسانية التى تتخذه لغة للتخاطب والتفاهم . وعلى ذلك فغالباً ما يكون رامبراند شاعراً سامياً ورفائيل واقعياً صرفا

دعنا نروض أنفسنا على فهم عظماء الفنانين . دعنا نحبهم ، ولنقصدهم لنستلهمهم ونستوحيهم ؛ ولكن فلنكف عن وضع بطاقات عليهم كتلك التى نضعها على العقاقير فى مخازن الأدوية

دكتور محمد بهجت
قسم البساتين

(١) نسبة إلى مدينة البندقية

أغانى الرعاة . . . !

للمرحوم أبى القاسم الشابى

أقبل الصبح يغنى للحياة النـاعسه
والربى تحلم فى ظل الغصون المائسه
والصبـا ترقص أوراق الزهور اليابسه
وتهادى النـور فى تلك الفجاج الدامسه

أقبل الصبح جميـلا ! يملأ الأفق بهاه
فتمطى الزهر والطير وأمواج الميـاه
قد أفاق العـالم الحى ... وغنى للحياه
فأفيقى يا خرافى ! واهرعى لى يا شياه !

واتبعينى يا شياهى بين أسراب الطيور
واملئى الوادى ثغـاء ! ومراغاً وحبور
واسمعى همس السواقى وانشقى عطر الزهور
وانظرى الوادى يغشيه الضباب المستنير

واقطفى من كلأ الأرض ومرعاها الجديد
واسمعى شـبابتى تشدو بمعسول النشيد
نغم يصعد من قلبى كأنفاس الورود
ثم يسمو طائراً كالبلبل الشادى السعيد

وإذا جئنا إلى الغاب وغطانا الشـجر
فاقطفى ما شئت من عشب وزهر وثمر
أرضـعته الشمس بالضـوء وغذاه القمر
وارتوى من قطرات الطل فى وقت السحر

وامرحى ما شئت فى الوديان أو فوق التلال
واربضى فى ظلها ما شئت إن خفت الكلال
وامضغى الأعشاب والأفكار فى صمت الظلال
واسمعى الريح تغنى فى شماريخ الجبال

إن فى الغاب أزاهير وأعشاباً عِذاب
ينشـد النحل حواليها أهازيجاً طراب
لم تدنس عطرها الطاهر أنفـاس الذئاب
لا... ولا طاف بها الثعلب فى بعض الصحاب

وشـذا حلواً وسحراً وسلاماً وظلال
ونسيما سـاحر الخطوة ! موفور الدلال
وغصونا يرقص النور عليها والجمـال
واخضراراً أبدياً ليس تمحوه الليـال

إن تملى يا خرافى ! فى حمى الغاب الظليل
فزمان الغاب طفل لاعب عذب جميـل
وزمان الناس شيخ عابس الوجه ثقيل
يتمشى فى ملال فوق هاتيـك السهول

لك فى الغابات مرعاى ومسعاى الجميـل
ولى الإنشاد والعزف إلى وقت الأصيـل
فإذا طالت ظلال الكلأ الغض الضئيـل
فهلمى نرجع المسعى إلى الحى النبيـل

فى دار الإذاعة :

غريب . . .

لأستاذ إبراهيم العريض

يا ابنة الحسن ! لا تقولى غريب　　غربتنى فى الحب عينا مهاة
لم تكن غير نظرة ... تركتنى　　ظامئاً — بعدها — إلى نظرات
أغمض العين كى أراها بسمعى　　حين تسترسلين فى النغمات ...
فى فؤادى أحس وقع خطاها　　حيثما تهـدين بين اللدات
سائلتنى : أأنت تشعر ؟ هلا　　سائلت عنى النجوم رواتى ؟
آه لى من هواك ! لو كنت عوداً　　جسَّرته يداك للنغمـات
أنا من فى الجمال غرّد حتى　　ردد النيـل لحنه للفرات
قدك يا هند ! طاب عهدك لما　　جرت على ابتسامة فى حياتى
لم تكن غير بسمة عجلت عيـناك فى القلب سحرها بالتفات
ثم عدنا ... تخفيك عن الليالى　　بين أحلامها ... وبين ملاقى
أيها الليل ! ضم ما شئت عنى　　غير صـوت يلم بى فى أناة
صوت تلك التى بشاطئ جمنا(١)　　تتجنى ... عرفت فيها مهاتى !

(١) اسم النهر الذى تقوم عليه العاصمة الهندية .

ألوان . . .

للشاعر عبد الرحمن الخميسي

ليل باكٍ

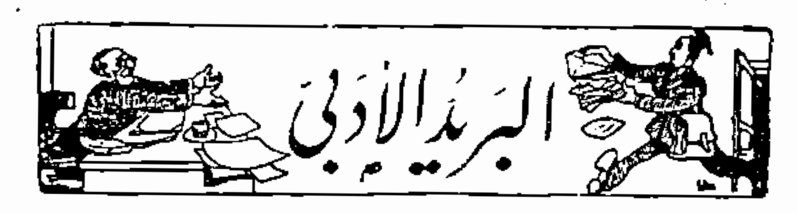
استوى الليلُ على عرش السما؛ مُطفئاً فيها مصابيحَ الفضاء؛
كافراً تقطرُ من حلكته بالدجى حتى أعاصير الهواء
سلَّط البَرْدُ على أكتافه من سياط البرق تعذيب الشتاء
والرياحُ الهوجُ من أنفاسه أطلقتْ من قلبه بعض الغناء
يحمــــلُ اللوعةَ فى أغواره يجهش الرعد بها كيف يشاء
فتدوِّى قصفةٌ من فمه كلما اشتدت عليه البُرَحاء
تسرد الأمطار عن شفوته قصة الحزن لعشاق البكاء

حيرة

يكسر مجدافى ومادتْ زورق أعاصير هوجٌ كلهنَّ جنونُ
وأفردْتُ وحدى فى الخضمّ ولفَّنى
ظلام من الأرزاء ليس يهونُ
فلا الموج يطوينى ولا النور مُسعفى
ولا الشاطىء المجهولُ عنه يبينُ

شجن

ثارت بنفسى حيرةُ الـأمانِ ورمتْ فؤادى فى اللظى أحزانى
وودتُ لو أحظى بلقيا عابر فى الليل أفزعُ نحوه فيرانى
ويرى الذى قد خطه من شقوتى ألمى على وجهى الحزيل العانى
وأنَّــه هتفات قلب راسف فى الحب والتعذيب والحرمانِ
فلقد يُريحُ النفسَ أن تُفشى الذى
فى غورها من هاتف الأشجان
ولقد يُريحُ النفس أن يُصغى إلى
صرخاتها قلبٌ وحيــــدٌ حانى
أوّاهُ من شجنى الذى أبكانى ومشى على قلبى وفى أركانى
يا قدْسَهُ من لاعجٍ نيرانى لم يُبقِ إلا صورةَ الإنسانِ



حول منهج البحث عن تكوين الشعب المصرى الجديد

ليس من الحق أن ننكر ما بذله الأستاذ الشيال من الجهد فى بحثه (تكوين الشعب المصرى الجديد بعد الفتح العربى) فى مجلة الثقافة من رجوع إلى المصادر العربية القديمة ومحاولة تنسيق النقول المختلفة منها مع صحة الاستنباط وبراعة الاستنتاج ، بيد أنى مضطر إلى القول بأن المنهج الذى ابتدعه يعوزه الترتيب وتنقصه المحاولة الدقيقة فى البحث عن أصول هذا التكون وعوامله ومقدار التلوين الذى أدخلته كلتا الشخصيتين العربيـة والمصرية على الأخرى . وإذا ما عدنا إلى مناهج الغربيين الباحثين عن أصول تكون الشعوب الأوروبية وجدناها تختلف عن منهجه اختلافاً قوى الأثر بعيد الخطر . ولا يصح أن يقال إن ظروف التكون التى أحاطت بهذه الشعوب تختلف عن الظروف التى أحاطت بتكون الشعب المصرى العربى بعد الفتح ؛ فإن الأصول الأولى التى عرفت والتى كان لها أكبر الأثر فى تكون هذه الشعوب ونمو شخصيتها الجديدة هى بعينها الأصول التى عرفت عند العرب . وإذا ما جاز لنا أن نحاول مثل هذه الدراسات فى البحث عن أصول الشعوب العربية الجديدة وتأثرها بمقومات الشعوب التى استعمرتها فى الثقافة والدين واللغة والجنس فإن هذا يحتاج إلى منهج من نوع آخر ليس يكفى فيه تنضيد النصوص العربية والوقوف عندها بالاستنتاج الحذر مما لا يأتى بصورة واضحة ولا يدلى بأسباب قوية عن هذا التكون.

ولقد حاول المؤرخون الإنجليز البحث عن أصول تكون الشعب الإنجليزى المختلفة المتعاونة على تقويم حياة الشعب فكانت لهم من ذلك محاولات يصح أن ينتفع بها الدارسون لمثل هذه المحاولات فى الشعوب العربية وآدابها والأستاذ الشيال حين يبدأ أولى هذه المحاولات يقف عند المصادر العربية وقوفاً عجيباً فلا يحفل بالبحث عن مقومات البيئة المصرية الأولى التى استعمرها العرب . ونحن نعلم مما وصل إلينا من البحوث الخالدة التى عولجت حول هذه البيئة من مؤرخى اليونان والرومان الذين رحلوا إلى الأسكندرية أو استقروا فيها شيئاً كثيراً يتصل بعضه بالأديان المختلفة التى كانت تصطرع فى هذه المدينة وبعضه بالآثار الأدبية المختلفة من يونانية وقبطية وبعضه يتناول نواحى من التدين خاصة كالتصوف الذى تأثر به العرب فيما بعد والذى كان أصلاً من أصول الحياة الدينية المصرية القديمة[1] .

وإن الأفلاطونية الحديثة التى نشأت فى مدينة الأسكندرية كان لها أثر قوى فى البحوث الدينية عند المسلمين فيما بعد ولعل هذا يلفتنا إلى وجوب البحث الدقيق عن مسالك تأثر المسلمين بالثقافات اليونانية إذ ربما حول ذلك مجرى البحث الذى استقر فى مثل هذه الموضوعات عندهم .

وإذا كان المؤرخون الإنجليز حاولوا شيئاً من هذا فى دراساتهم الأدبية والتاريخية فأولى بنا أن نرجع أولاً إلى مثل هذه المحاولات قبل البدء فى دراسة هذه الموضوعات . وبين يدى الآن مرجع من هذا الطراز Kistory of later Greek Literatureby Wright يبحث فيه صاحبه ما تردد فى الأسكندرية من ألوان الثقافات المختلفة التى كان لها أكبر الأثر فى تكوين الشعب المصرى الجديد .

ولا يقف فى سبيلنا ما لا يزال موضعاً للدراسة مما روى من إحراق مكتبة الأسكندرية على يد عمرو بن العاص بأمر عمر فإن تأثر العرب بالثقافات القديمة فى مصر لا يرتكز فقط على المتحف والمكتبة وإنما يعتمد على أشياء أخرى تظهر لمن خصص نفسه لمعالجة مثل هذه الدراسات برفق ولين وأناة .

وإذا كانت الفلسفة اليونانية قد لجأت إلى الأسكندرية بعد ما لاقت من ألوان الاضطهاد والأذى فى الغرب فوجدت فيها حياة آمنة وأفقاً طليقاً يلائم الفلسفة والتفلسف فأجدر بنا ألا نقف عند هذه المحاولات بل ينبغى أن يمتد ذلك إلى تعرف آثارها فى الحياة العربية الإسلامية المصرية فيما بعد .

وإذا كان المقريزى فى خططه يصف سكان مصر فيقول : « وهم أخلاط مختلفة من الفرس والروم والعجم والبربر » ولكل من هذه الأخلاط مقومات مميزة انصهرت انصهاراً عجيباً فى البيئة المصرية فإن البحث عن أصول هذا الشعب ينبغى أن يتناول هذه الأخلاط المتباينة فى الجنس والثقافة والدين .

وسواء أكان العرب الذين استقروا فى مصر قيسيين أم يمنيين فإنهم وافدون من جزيرة العرب ذات المقومات الخاصة فى الدين واللغة والجنس ، ونحن نعرف من تاريخهم أكثر مما نعرف من تاريخ القبط والروم والفرس والبربر؛ فالاتجاه إلى بحث الجنس العربى وحده اتجاه يسير الجدوى قليل الأثر .

(١) انظر ترجمة ذى النون فى حلية الأولياء لأبى نعيم .

وإنى أرجو أن يتعاون الباحثون عن تكون الشعب المصرى الجديد تعاوناً يستند على أصول دقيقة من البحث العلمى حتى تقوم دراسة الأدب العربى المصرى على أسس صحيحة من البحث المنتج السليم .

السيد خليل

طباعية لا طبعية ولا طبيعية :

قال الإمام العالم الأديب أبو حيَّانَ التوحيدى فى القابسة الثانية والعشرين فيما بين المنطق والنحو من المناسبة ص ١٧٢ من كتاب المقابسات — وشهادة النحو طِبَاعِيَّةٌ ، وشهادة المنطق عقلية — فنسب إلى طِباعٍ ولم ينسب إلى طبيعة ، وتحرز بذلك المشكلة القائمة الآن فى النسب إليها ، وقد جاء فى القاموس : الطَّبْعُ والطبيعة والطِّباع ككتاب السجية جبل عليها الإنسان أو الطباع ككتاب ماركب فينا من المطعم والمشرب وغير ذلك من الأخلاق التى لا تزايلنا ، كالطَّابِع كصاحب

فهل لنا أن نقلد ذلك الإمام الجليل فى تلك النسبة ، ونقول فى هذا المعنى — طباعية وطباعى — ولا نقول طبيعى ولا طَبَعى لأن النسبة الأولى تخالف القياس فى المنسوب إلى ما يكون على فَعِيلة والنسبة الثانية تلتبس بالنسبة إلى طَبَع بفتح الطاء والباء ، وهو الصدأ والدنس ، ولا شك أن مثل هذا الالتباس له حكمه فى اللغة ، وقد أوجب دفعه كثيراً من أحكام النحو .

عبد المتعال الصعيدى

أين شعراؤنا ؟

رحم الله (شوقيًا) و (حافظاً) إنى كلما جد حادث فى مصر أو فى الشرق ، تذكرت هذين الشاعرين فسكبت عليهما الدموع ، ولعلهما لو عاشا إلى أيامنا هذه لقرأنا لهما القصائد الجياد فى هذه الأحداث التى تمر بنا . ولكنهما ماتا ، ولم يصدق الشاعر حين قال :

قالوا خلت مصر بعد الشاعرين ولم ... يعمر بمثلهما ميدانه الخالى

ولست وجدى له فى مصر بعدهما ... فمصر ملأى بأشباهى وأمثالى

نعم وجد هذا الشاعر سعة فى مجال الفخر ولكنه لم يجدها فى مجال الشعر ، وإلا فأين أشباهه وأمثاله ؟ أين هؤلاء الذين ملأوا الصحف بالأمس يبكون (باريس) أين هم اليوم ليبكوا « دمشق » و « حلب » و « حماة » ؟ ضلة لهؤلاء المفتونين بفرنسا وضلالات فرنسا ، أتراهم سكتوا الآن لأنهم يحبون فرنسا أكثر مما يحبون « سوريا » و « لبنان » ؟ إنا لنرفعهم عن ذلك ، ولكن ما بالهم لم تهز مشاعرهم هذه الحوارث الفظيعة التى ترتكبها فرنسا ؟

أيها الشعراء ، سجلوا مفاخر قومكم قبل أن تسجلوا مفاخر أعدائكم ، وابكوا على مصائبكم قبل أن تنوحوا على مصائب الناس وأسمعونا أصواتكم .

على محمد حسن

تصويب أخطاء فى العدد الماضى

فى الصفحة الأولى من العمود الثانى فى السطر ١٧ : هيهات ألا يبعث ، والصواب لا يبعث

فى الصفحة ٦٢٠ العمود الأول السطر الرابع للواتى والصواب اللواتى

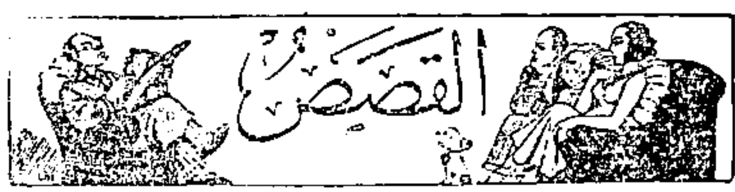
« « « « الثانى السطر ٢١ أيها « أيهما

« « ٦٢٢ « الأول السطر ١٣ من ثمانه « بعد ثمانه

« « ٦٢٥ « « العاشر بعد الهجرة « بعد الميلاد

جريدة الأنذار

أصدرت جريدة الأنذار التى يصدرها أسبوعياً بالمنيا الأستاذ صادق سلامه عدداً ممتازاً فى ٣٢ ص بمناسبة دخولها فى سنتها السادسة عشرة وهو عدد حافل بالطرائف الأدبية والآراء القيمة لنخبة من رجال العلم والأدب والسياسة فرجو للزميلة دوام التوفيق واطراد التقدم



الدميم (*) ...

للأستاذ حبيب الزحلاوى

— ١ —

ما كدت أبتعد بضعة أمتار عن المقهى حيث كنت جالساً مع طائفة من أصدقائى حتى شعرت بقبضة يد رقيقة تستمهلنى . التفت فرأيت واحداً من أولئك الأصدقاء الجلاس ؛ فلمحت فى نظراته شبه استعطاف ، فقال لى بلهجة لا تخلو نبراتها من قوة : أريد أن أسألك بشرط أن تجيبنى بصراحة ، ما هى عقدة القصة ؟ وما هى الحبكة ؟ ما هو العرض والفكرة والوحدة التى تكلمت عنها فقلت إنها عناصر حيوية للقصة ؟ أنا يا صديق أحسن كتابة القصة ، أو بعبارة أخرى أحسن خلقها نوراً ، وأبتدع وقائعها وأشخاصها ابتداعاً ، وأجذب السامع إلى الانتباه إلىّ ، ولا أتركه إلا بعد أن أشبعه وأمتعه بلذات من الخيال المذوّق ، والتلفيق الموشى بألوان من حسن الكلام . أليس هذا هو الفن ؟ ! واستطرد قائلاً : ما دام الأمر كما ذكرت لك ، وأزعم أنى ذكرت الحقيقة الواضحة عن البناء الفنى ، فما هى إذن العقدة ، والحبكة ، والعرض والفكرة والوحدة التى تكلمت عنها ، وأحسب أنى فهمت من مجمل كلامك أن لا قيمة للقصة الخالية من هذه الخصائص ؛ فهل هذا صحيح ؟

أعجبتنى رؤية مسحة الطفولة تكسو وجه هذا الشاب ورفقت به وبأمثاله ممن يتنالبون فى الآداب والفنون ويستهينون بها كأنها سهلة التناول فقلت :

تعال معى إلى النادى فهناك أستمع إليك بانتباه وأجيبك إلى طلبك عن رضى .

قال : فى الجلوس فى المقهى متعة للنظر لا وجود لها فى الأندية .

فقلت : ليس بى ميل إلى إشغال الذهن بمراقبة المارة ، وليس بى ذلك الظمأ إلى المرأة الذى ينتابكم أنتم يا جلاس المقاهى

قال : نحن على غير مذهبك الفردى يا صاحبى ، نحن جلاس الأفاريز ، رواد المقاهى ، نتضور جوعاً ، نتلهف على لفتة من فتاة ، أو نظرة من امرأة ، ألا تحسّ مثلنا بالمجاعة الجنسية وقد طغت واستعصى أمرها على وزارة الشؤون الاجتماعية ؟

ابتسمت لكلام هذا الشاب المتحمس ، فأخذته من يده فمشى معى ، فلما دخلنا المصعد الذى سيرتفع بنا إلى الدور العاشر من البناء قال : انت مصرّ على الجلوس فى النادى وكر الكهول والشيوخ من أرباب المال ؟ حسن ، سأجلس معك فى هذا النادى المرتفع المترفع عن الناس ، وأقص عليك قصة من صميم الواقع ، وأنا قمين بأنك ستشهد لى ببراعة الارتجال ، وبأن القصة هى القصة ، أعنى أن العقدة والحبكة ، والفكرة والوحدة ، إن هى إلا افتعالات ، أما إذا كانت شيئاً غير ذلك فستدلنى عليه .

ابتسمت أيضاً لهذا الإدعاء الجديد الذى يمثل ادعاءات الشبان وهم يتوهمون الأمور وفق أمزجتهم الرخوة لا وفق الواجب فى معرفة الأصول ، وقلت لصاحبى بعد أن انتحينا ناحية فى النادى مزدانة بأصص من الزرع دائمة النضارة الربيعية ، يحسن أن تجلس هنا فتقص علىّ قصة شعرية يرتجلها خيالك الخصب وينتزعها من صميم الواقع كما قلت .

أرجو ألا تهزأ بى . استمع إلىّ :

« وضعت حقائبى فى المكان المعد لها ، وجلست على المقعد الذى احتجزته فى عربة القطار ، ثم التفت لأرى رفاق الطريق الذى سأقطعه برحلة واحدة من مرسيليا إلى باريس ، فلقيت سيدة تتألق نضارة وشباباً ، وضاحة المحيا بادية الفتنة وسمعتها تقول للرجل الجالس إلى جانبى : ألم أقل لك إنه غير فرنسى ، إذ لو كان فرنسياً لكان حيانا بإشارة بسيطة ساعة دخوله ، ولما كان ألهاه الموعدون ولا الشاغل الذهنية عن آداء التحية الواجبة » .

وسمعته يقول لها : لِمَ لا تقيمين للتقاليد والعادات اعتباراً ؟ لماذا تفرضين على غير الفرنسيين الأخذ بعاداتكم وتقاليدكم ، وقد تكون هذه التقاليد التى ترينها حميدة عندكم مستهجنة عند بعض

(*) من مجموعة قلب مبعثر (تحت الطبع)

الأقوام ، وربما كانت مستقبحة عند أقوام آخرين أمثال الإنجليز مثلاً الذين يحيون من لايعرفون مهما كانت الظروف والمناسبات .

فهمت من لهجة الرجل ومن قسمات وجهه ولون بشرته أنه أميركي يحسن التعبير عن خواطره باللغة الفرنسية وكان بلفظها صحيحة ولكن ببطء ممض أوجع نفس السيدة الفرنسية الجيّاشة ، وأدركتُ أن مدار الحديث يدور حولي لأني أخذت مكاني في عربة القطار ولم أحي من فيها ساعة دخولي !

هل أدخل في القضية طرفاً ثالثاً على حد تعبير المحامين ، وهي قضية خاصة بي برغم قيامها بين السيدة الفرنسية والشاب الأميركي ، أو ألزم الصمت وأحترم سجية نفسي وعادات قومي وأسكت عن الكلام مع من لامعرفة لي به . أليس في ذلك تطفل أو تخط للعرف ؟ أو ليس هو وسيلة سهلة مؤدية إلى التعرف بهذه السيدة الجميلة المغرية ؟ أو ليس في ذلك فائدة للوصول إلى ناس يطيب لي أن أحدثهم عن قومي وبلادي وقد لايعرفون عنهم شيئاً أو يعرفون ما تنقله لهم الدعاية المغرضة ، والفكر الاستعماري وجهالةُ بعض الكتاب الطائشين ؟

جالت هذه الخواطر في ذهني والسيدة والرجل ما زالا يتحاوران ويتناقشان . هي تصر على أن عادات قومها مرتكزة على قواعد آداب الاجتماع وهو ينكر أن للآداب الاجتماعية قواعد ثابتة ؛ هي تقول إن قواعدها الفن والذوق ، وهو يقرر أيضاً أن مباءات الفن هي معارض النحت والتصوير ودور التمثيل وبعض دواوين الشعراء وكتب الأدباء والروائيين ، وأن الذوق مسألة فردية وإحساس ذاتي . هي تغضب من تعمده إهمال ذكر المرأة في أنها الفن كله باعتبار أنها الباعثُ الأول على استفزاز ملكات الفن والإلهام الفني ، وهو ينكر عليها بعض دعواها ويؤيد بعضها ويقول : إن المرأة موحية حافزة ، وليست هي بشيء في صميم الفن ! هي تصرخ قائلة : إنكم معاشر الأميركان لا تتذوقون الحياة إلا عن طريق الدولار ؛ وإنكم ... وإنهم عبدة الدولار فقط . أليس كذلك يا مسيو ؟ والتفتت إليّ تدخلني في هذا الجدال . كاد يرغم عليّ حين فاجأتني بسؤالها وهو استنجاد بي أكثر منه سؤالا ، ولكني تمالكت نفسي وقلت :

إخال أني كنت السبب في هذا الحوار الذي بلغ بكما إلى هذه النتيجة ، فهل تسمح لي سيدتي أولاً أن أحييها وقد آليت على نفسي مجاراة الفرنسيين وتقليدهم ما دمت في بلادهم ثم أدخل في الحوار ، لا كفضولي متطفل قد تعرضه صفاقته إلى سماع ما يؤذي إباء النفس ، بل كرفيق الطريق الذي يحرص على إبقاء أطيب أثر في نفوس رفاقه ؟

هاك يدي . أما أنا فمدام « فرانس » وصديقي هذا مستر « أميركا » وأنت يا صديقنا على هذا القياس من تكون ؟

رطبت شفتيّ بقبلة من يدها البضة وقلت متابعاً على المنوال نفسه : أنا يا سيدتي مستر « إيجبت ».

إيجبت ... إيجبت ! رددت السيدة كلمة إيجبت وهي تلفظها ممطوطة ممدودة بتؤدة كأنها تعود بذاكرتها آلاف السنين إلى الوراء تستعرض بلمحة واحدة آثار الماضي السحيق الباقية على الدهر وتقول : انت إذن مصري ؟ !

نعم يا سيدتي أنا مصري من سكان القاهرة ، وانت فرنسية تقاطعني قائلة : « فرنسية باريسية » وصديقنا أميركي من واشنطون أو نيويورك وليس قطعاً من هوليود . وها نحن الثلاثة نمثل ثلاثاً من قارات عالمنا ، ونمثل أيضاً أعرق مدنية عرفها التاريخ القديم وهي تتوثب الآن للعودة إلى الحياة ، وأعرق مدنية حديثة ستتغلب عليها مدنية أحدث منها ، ومدنية جديدة في العالم الجديد قد يكون لها طابع خاص سوف يتحول بسرعة إلى طابع يعم العالم ، وأردفت كأنها تتدارك فوات فرصة : نعم نعم سيكون الدولار طابع أميركا الخاص كما يحاول الروس أن يجعلوا الاقتصاد أساساً لنظام العالم الاجتماعي الجديد . قالتّ السيدة كلمتها عن الدولار . وضحكت ضحكة عالية لها رنة الأوتار المتزنة والنغمات الرقيقة .

قلت : العالم ياسيدتي لايقوى على السير في نظام اقتصادي محض بل يستحيل عليه المضي في طريق السعادة البشرية بغير دوافع الروح

هذا صحيح يا مستر إيجبت ولكني الاحظ أن مدام فرانس تتحداني في كل ما أقول ، فإذا كان ذلك يلذ لك ياسيدتي فلا أمانع أنا الأميركاني في تقرير الدولار طابعاً لبلادي وهو بالفعل الإله الذهبي الموحي إلى كل الناس كل الرغبات والشهوات .

المرأة يا مستر أميركا ، أرجوك ألا تنسى المرأة ، بل أحتم عليك عدم نسيانها لأنها الروح الذي تكلم عنه مستر إيجبت ولأنها وحدها الموحي لكل الناس كل الرغبات والشهوات — على حد تعريفك أنت — بل هي وحدها موحية الحياة والحب

لو كل النساء كن مثلك يا سيدتي لما ترددت في الاعتراف بذلك ولكن ...

دع يا مستر أميركا قرض المديح ونظم الثناء والإطراء لأنها من طبائعنا الأصيلة التي لم تقتبسوها عنا بعد ، وإنها وإن كانت

ترضي غرور المرأة وتدغدغ زهوها ولكنها لا تقوم مقام الحقيقة التي لا محيص عن الاعتراف والجهر بها وهي « أن المرأة هي الإله الوحيد الموحي إلى كل الناس معنى الحياة والحب ، ولذة الوجود والفرح به على الأرض ، ولذة الألم والحزن أيضاً » .

قال مستر أميركا موجهاً إلىّ السؤال : هل تعترفون بألوهية المرأة في مصر ، وبأنها مصدر إلهام يوحي إلى الناس معاني الحياة كما قالت مدام فرانس ؟

بلعت ريقي وتكلفت ابتسامة رضي وقلت : ليتك يا مستر أميركا تضع السؤال في الصيغة التالية : هل بلغت المرأة الأميركية درجة من الرقي سمت بها إلى مقام جعل الرجل يتطلع إليها فيه كما نتطلع كلنا إلى المرأة الأوروبية باعتبار أنها الملهم معاني الحياة والدافع إلى الشعور بالفرح بها ؟

لقد نجحت في تحويل الدفة ، كما يقال في تعبير التونية ، وفي رفع الأثقال عن كتف المرأة المصرية والرجل المصري ، وفي إزاحة الألم عن نفسي من قول الحق ، وقد أفلحت في ذلك ، إذ ما كدت أنتهي من تحريف السؤال وتوجيهه إلى مستر أميركا حتى انبرت مدام فرنس تقول : تخولني معلوماتي حق القول بأن المرأة الأميركية أخذت تدرك قدر نفسها وستنجح في صيرورة ذاتها مصدر حياة أفعل في روح الرجل الأميركي من الدولار .

ما كادت تنتهي مدام فرانس من قولها حتى رأيتني مدفوعاً إلى الكلام فقلت معقباً :

سوف تصيّر المرأة المصرية ذاتها مصدراً لإلهام الرجل وإذكاء روحه متى خلصت من شوائب الطفرة وبعد أن ترغمها الآلام على التفكير في ماضيها ومستقبلها بالقياس إلى حاضرها المضطرم بنيران الانتقال .

صحيح ما رمزت إليه بلباقة يا مستر إيجبت عن المرأة أنها في طور الانتقال الذي يعقب الانقلاب الاجتماعي ، ويمكنني القول إن بواكير الانقلابات تكون من النساء وفي النساء كما تكون بوادر الثورات وطلائعها من شرارات يقدحها طلاب الجامعات بإيحاء غير مباشر من أرواح يقظة عاملة هادئة .

* * *

سكت محدثي الشاب وكاد يطول سكوته ولكنه رفع رأسه ونظر إلىّ نظرة استفهام واضحة ، فقلت له ببرود : ثم ماذا ؟

ماذا ؟ ! نعم نعم ، كدت أظن أني أنهيت القصة ولكني نسيت فصلها الثاني .

دوّى رنين الجرس يدعو الراغبين في الطعام من ركاب الدرجة الأولى إلى تناول العشاء ... وكان الكلام حتماً لمدام فرنس التي أمرت أحد الندل (جارسون) بتهيئة مائدة لثلاثة أشخاص ... فكان طعام وكان شراب ، بل كان شراب وطعام وكلام وشعر وتوريات ورموز وتلميحات ومقارنة بين المرأة المصرية وأختيها الفرنسية والأميركية ، وكادت تضطرم ثورة مدام فرانس لتوهمها أن أختها المصرية أوفر براعة منها في إرضاء الرجل ...

عدنا إلى مقاعدنا وقد أذبل الشراب أجفاننا ، وأخمد قوة النضال الكلامي فينا ، وأذكى بطبيعة الحال قوة النظر الطويل والإعجاب الذي لا حدّ له والافتتان بهذه المرأة المملوءة حيوية وجمالاً ونضارة وسحراً والممددة أمامنا على مقعد عربة سكة الحديد تحاول النوم على هدير القاطرة وصفيرها وقرقعة العربات .

لقد أحيينا الليل ورفيق الأميركي نتحادث همساً حتى لا نزعج السيدة النائمة ، وكان طبيعياً أن نختلف في الرأي وأن نتحاور ونتجادل ثم نعود إلى صفائنا الأول ، وكان بديهياً ، بحكم الرغبة الكامنة ألا نختلف أبداً وأن نتفق اتفاقاً تاماً على ألا نعيد الغطاء كلما سقط عن جسم هذه المرأة الفاتنة المتناومة ، وكان عذباً على سماعنا قولها : يا لكما من شابين شقيين !

سكت محدثي مرة ثانية فلم أدعه يتمهل بل قلت له بنبرة جافة : ثم ماذا ؟ صدمه سؤالي وكاد يتخاذل ولكنه تجلد وقال :

طلع الفجر ، ثم تفجرت أشعة الشمس ، وانجلت عروس تربة فرنسا بثوبها الزبرجدي النضر . وبلغنا باريس فافترقت القارات الثلاث ، وراح مستر أميركا ومستر إيجبت كل في طريقه ، وراحت مدام فرانس تنثر القبلات وتتقبل القبل من مستقبليها على إفريز المحطة

ربتّ كتف محدثي وقلت له ببشاشة أذهبت وقع الصدمة الأليمة التي صدمته بها عند سؤالي إياه تتمة القصة بقولي : «ثم ماذا» ليست قيمة القصة يا صاحبي في المادة التي تتألف منها ، ولا في كيفية ترتيب تلك المادة ، بل قيمتها في الكيفية التي تؤدى بها وفي عرضها عرضاً خاصاً بمهارة فنية ، بالتشويق والترغيب ، في صدق الرواية عن الحياة ، مضافاً إليها الخصائص الفنية التي ذكرتها في حديثي مع رفاق المقهى ، أما قصتك المرتجلة هذه فإنها تماثل حكاية واقعية وقعت لي حين رحلت إلى جزيرة رودس التي انتزعها الطليان من الدولة العثمانية مع بقية جزر الدوديكانيز .

قال : أترتجل قصتك ارتجالاً ؟ فابتسمت لسؤال هذا الشاب وقلت

يتبع

حبيب الزحلاوي